الفصل الثالث

نماذج من التصوير الجمالى فى القرآن الكريم

- الصورة الجمالية فى فنون الكلمة.
- أنماط التصوير الجمالى فى القران الكريم.
- نماذج من التصوير الجمالى فى القرآن الكريم.
  - فى مشاهد خلق الكون.
  - فى مشاهد الطبيعة.
  - فى مشاهد القيامة.

الفصل الثالث

نماذج من التصوير الجمالى فى القرآن الكريم

أولاً: التصوير الجمالى فى فنون الكلمة

التعبير عن الواقع والحياة والكون بمختلف وسائل التعبير- من فنون الزمان والمكان، أو فنون القول أو الصوت أو الشكل-هو عملية حيوية لازمة لحياة الإنسان الفكرية والثقافية والاجتماعية ولتطور هذه الحياة عبر الزمان والمكان.

والتعبير هو عملية إبداعية خلاقة حية، تختلف فى معناها ومفهومها عن عملية التسجيل والمحاكاة السلبية التى تفتقد إلى الإرادة والقصد والوعى، والتى لا تملك سوى تسجيل الحدث أو الموضوع بحاله وواقعه وحقيقته المجردة. وإذا كان (التقرير) هو طبيعة (التسجيل) وطريقته، فان (التصوير) هو طبيعة (التعبير) ووسيلته.

إذ أن التصوير عملية إبداعية خلاقة تضفى على الموضوع المصور ما تملكه الذات المصورة من خيال مبدع بحيث تمنح له حرية التصرف فى شكل الشئ المصور وأوصافه وملامحه وتفاصيله، وحرية الإضافة إليها أو الحذف منها، وكذلك حرية التعديل والتغيير وفق إرادة المصور المبدع ومشيئته ورغبته، وبما يتوافق مع أهدافه ويتواءم مع غاياته: شكلية كانت أم موضوعية، جمالية أم فكرية، مادية أم معنوية.

والفن بوجه عام هو «نهج بارع فى ابتكار الجمال والتناسق والنظام، أشبه بلغة خاصة تختلف عن اللغة التى يتحدث بها الناس، لغة قادرة على التعبير عن الأفكار والأحاسيس والمشاعر والعواطف، وعن تجارب الفنان الذاتية والاجتماعية ونقلها للآخرين. والفنان عندما يقوم بإبداع عمله الفنى يحس انه أسير تجربة عامة تسترعى اهتمام سائر البشر ولهذا يحرص على أن يجعل عمله سواء كان إنسانى النطاق أو ذاتى النطاق إلى عمل ميسور الفهم تسبغ عليه موهبته فى النهاية الجمال الآسر الذى ينفذ إلى مشاعر الناس» (١)

(١) ثروت عكاشة: **الزمن ونسيج النغم**، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٠، ص٩.

وإذا كان هذا هو المفهوم العام للفن فإن فن التصوير بمفهومه التشكيلى هو ترجمة المعانى والأفكار إلى إشكال بصرية تكون فى مجموعها الصورة المرئية للموضوع. فهو التعبير عن الموضوع أو الفكرة بواسطة وسائل التخطيط والتلوين بأنواعها وتراكيبها المختلفة على المسطحات المناسبة. ويستطيع الفنان المصور أن يضمن أشكاله الأبعاد والظلال والأضواء والمسافات والدرجات اللونية والملمسية، وغير ذلك من الإيحاء بالحركة الإيهامية والتجسيم، وكل تقنيات التصوير التشكيلى.

وتستطيع الكلمة أن تقوم بمهمة الريشة الملونة أو العدسة المصورة، فى تحويل المعانى والأفكار إلى صورة فنية متكاملة لموضوع التعبير. صورة يتملكها الحس ويستشعرها الوجدان ويتمثلها الذهن. هذه الصورة بكل ما تملكه من وسائل التعبير والتجسيم، من إيقاع وحركة وأضواء وظلال وخطوط وألوان وعلاقات.

ونستطيع أن نتلمس الصورة الجمالية فى فنون الكلمة العربية على اختلافها. ولعل سبيلنا فى ذلك هو تقصى فن الشعر باعتباره أبرز فنون القول، بل هو فن العرب الأول. فبنظرة سريعة على المجتمع العربى فى العصور الجاهلية وفى عصر الإسلام الأول نستطيع أن نلمس أى نوع من الحياة التى كان يعيشها العربى قبل الإسلام وبعده. لقد عاش الإنسان فى بيئته الصحراوية عيشة ساذجة بسيطة تقوم على الطبيعة والفطرة ولم يعرف من وسائل الكسب سوى الرعى والتجارة، ولم يعرف من أحوال الاجتماع سوى فنون الفروسية والحرب، ولم يملك من وسائل هذه الحرب سوى سيفه ورمحه وفرسه. وطبيعى أن هذه الحياة البسيطة التى لم تعرف من تعقيدات الحياة المتحضرة شيئا قد ولدت نوعا من تلك العادات الأخلاقية والعادات الاجتماعية البسيطة والواضحة والتى تكاد تكون ثابتة لا تتغير فى المجتمع البدوى العربى. فكل ما عرفه العرب من القيم الأخلاقية هو الشجاعة والكرم والمروءة والعدل والوفاء والعفو عند المقدرة... وما إلى ذلك من قيم وصفات خلقية حميدة.

فإذا تناولنا على سبيل المثال فن الشعر، وهو الفن المتميز عند العربى الجاهلى وفى صدر الإسلام- وبحثنا عما يمكن أن يكون للمجتمع العربى من أثر على الشاعر فأننا يمكن أن نقطع بأن هذه التقاليد الاجتماعية التى أشرنا إليها قد جعلت هذا التأثير متصلا بالشكل الفنى فقط حيث أن المحتوى يكاد يكون واحداً لا يتغير، بل ليست

هناك فرصة لتغييره. وبناء على ذلك فلم ينظر المجتمع العربى إلى الشاعر نظرة تطورية من حيث المحتوى الذى يعالجه أو الفكر الذى ينطوى عليه شعره، ولم يطالبه بأى غاية نفعية أخلاقية كانت أم غير أخلاقية، ولكن كان يكتفى دائما بالمتعة الخالصة. تلك المتعة التى تحققها (الصورة الفنية البحتة). لذلك ارتبطت نظرة المجتمع العربى دائما إلى الشعر بالتقاليد الفنية الشكلية الصرفة. ولم تكن هذه النظرة من جانب المجتمع إلى الفنان والشاعر فحسب، بل كان هذا ميلا طبيعيا من الفنان نفسه نحو الابتكار والتجديد فى الصورة الفنية والميل المستمر إلى تحسين هذه الصورة وتجويدها للوصول بها إلى أسمى درجات الكمال الفنى.

وهكذا نجد أن هذه التقاليد الاجتماعية العربية قد جعلت للصورة الشعرية بما تحتويه من بلاغة الصياغة مقياسا للمفاضلة بين شعر وأخر.

ولقد تمثل مفهوم الفن كصناعة فى ذهن النقاد العرب الأولين، حيث يخضع الفن متمثلاً فى فن الشعر- لأصول هذه الصناعة وقواعدها الصارمة حتى تتحقق للشعر صيغته وصورته الجمالية- وشكله الفنى المأمول والذى يحقق الإمتاع الحسى والإمتاع الذهنى معاً. والمتأمل لآراء النقاد العرب والشعراء والبلاغيين يجد أن عامل الصنعة قد سيطر على غيره من العوامل فى ذهن النقاد والشعراء العرب واهتمامهم. وهذا مؤداه أن نظرة الناقد العربى بوجه عام تقوم على العناية بالشكل الخالص للفن. ذلك أن الصورة المصنوعة عندهم أفضل من الصورة الطبيعية، وكما رأينا قبل ذلك عند التوحيدى من أن الجمال فى الصناعة (الفن) أكمل من الجمال فى الطبيعة.

ولقد أدرك الناقد العربى منذ قرون طويلة- بحسه المرهف وفطرته، ونظرته الثاقبة- قيمة الخصائص الموضوعية فى الشئ الجميل وراح يبحث عنها فى فنه الأول(فن القول). ولقد عنى النقاد العرب فى دراساتهم فى فنون البلاغة بتحديد شروط النص الجميل شعرا كان أم نثرا. وقد أسفرت بحوثهم عن الوصول إلى مقومات الشكل الفنى الجميل. وتتلخص هذه المقومات فى الإيقاع والعلاقات.

وإذا كان الإيقاع والعلاقات هما أهم مقومات الصورة الجميلة فى رأى النقاد العرب فأننا نجد أنفسنا بالضرورة بصدد مقارنة- سريعة على الأقل- لكل من المفهوم العربى القديم، والمفهوم الأوربى المعاصر لهذه المقومات حتى يتبين لنا مدى العلاقة بين

المفهومين ارتباطا أو انفصالا. ولنبدأ بمفهوم الإيقاع والعلاقات عند النقاد والمفكرين العرب.

إذا كان الفكر الغربى قد فهم الإيقاع على أنه يتحقق من النظام، والتغيير، والتكرار، والتنوع، والتلازم، والتوازن، والتوازى والتساوى ... إلى آخر تلك المترادفات، فان هذا الإيقاع قد تمثل عند الناقد العربى تحت مسميات أخرى بلاغية تتردد فى أبواب البديع التى عرفها العرب مثل : الجمع والتفريق والتقسيم والائتلاف، والمقابلة والنظير، والابتداء والانتهاء، والسجع.. إلى آخر تلك القوانين البلاغية العربية.

ونظراً لذلك فقد بذل النقاد والبلاغيون العرب جهداً كبير فى الكشف عن هذه القوانين وكيف تتمثل فى الأدب بوجه عام وفى الشعر بوجه خاص.ومن هؤلاء النقاد: قدامة بن جعفر فى كتابيه (جواهر الألفاظ)، و(نقد الشعر) وابن سيناء الخفاجى فى (سر الفصاحة)، وضياء الدين ابن الأثير فى (المثل السائر)، وأبو هلال العسكرى فى (سر الصناعتين).

«ذلك أن الإيقاع عنصر أساسى لم ينكره احد، لأنه ملازم للشعر لا يتخلى عنه، وهو ليس مظهراً فحسب بل هو قوة جوهرية فيه ناتجة من الانفعال أو هى اهتزازات منظمة لما يحسه الشاعر من انفعال»(١)

وعن النظم والإيقاع فى الشعر يقول الناقد العربى ابن رشيق أن النظم فضيلة فى الشعر يتفوق بها على النثر «إن كل منظوم أحسن من كل منثور فى جنسه فى معترف العادة. ألا ترى الدر وهو اخو اللفظ ونسيبه واليه يقاس وبه يشبه إذا كان منثوراً لم يؤمن عليه، ولم ينتفع به فى الباب الذى كسب له ومن أجله انتخب وإن كان أعلا قدرا وأغلا ثمناً. فإذا نظم كان أصون له من الابتذال وأظهر مع كثرة الاستعمال، وكذلك اللفظ إذا كان منثوراً تبدد فى الأسماع، وتدحرج من الطباع»(٢)

ولقد كان العرب فى سبيل الكشف عن القيم الإيقاعية فى الصورة الجميلة فى الفن القولى ينشدون الصورة المثلى التى تصل فى جمالها إلى حد الكمال. «وقد بحثوا

---

(١) د. محمد زغلول سلام: **ضياء الدين الأثير وجهوده فى النقد**، ص ١٨٩ .

(٢) د. محمد زغلول سلام: **النقد العربى الحديث**، ص ٥٥ .

فوجدوا أن هذه الصورة تتمثل فى الآثار الأدبية الراقية كالشعر القديم من شعر الفحول وكالحديث النبوى بل وجدوها تتمثل فى أرقى هذه الآثار وهو القرآن الكريم» (١)

أما عن ثانى مقومات الصورة الجميلة عند العرب وهى العلاقات فبوسعنا أن نؤكد أن النقاد العرب إلى جانب اهتمامهم بالإيقاع اهتموا اهتماما بالغا بالبحث فى تركيب الألفاظ وتنظيمها وعلاقة بعضها مع البعض.

وابرز من اهتم بهذا الاتجاه من نقاد العرب ضياء الدين ابن الأثير، ورائد هذا الاتجاه الناقد العربى عبد القاهر الجرجانى. ولعلنا نكتفى هنا بذكر مثال لرأى كل منهما للتدليل على أهمية العلاقات فى الشعر.

يقول ابن الأثير فى كتابه (المثل السائر): «إن تفاوت التفاضل فى تركيب الألفاظ أكثر مما يقع فى مفرداتها لأن التركيب أعسر وأشق... فإذا فكرت فى قوله تعالى: ﴿وقيل يا أرض إبلعى ماءك، ويا سماء اقلعى، وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودى وقيل بعدا للقوم الظالمين﴾ لم تجد ما وجدته لهذه الألفاظ من المزية الظاهرة إلا لأمر يرجع إلى تركيبها، وأنه لم يعرض لها هذا الحسن الامن حيث لاقت الأولى بالثانية و الثالثة بالرابعة وكذلك إلى آخرها.

فإذا ارتبت فى ذلك فتأمل هل نرى لفظة منها لو أخذت من مكانها وأفردت من بين إخوانها كانت لابسة للحسن ما لبسته فى موضعها من الآية... وما يشهد لذلك ويؤيده أنك ترى اللفظة تروقك فى كلام ثم تراها فى كلام أخر فتكرهها... وأنك ترى لفظتين يد لان على معنى واحد حسن فى الاستعمال وهما على وزن واحد وعدة واحدة إلا انه لا يحسن استعمال هذه فى مقطع تستعمل فيه هذه بل يفرق بينهما فى مواضع السبك» (٢)

أما عبد القاهر الجرجانى فهو يردد نفس هذا المعنى ويؤكد أهميته ويصر عليه بحماسة بالغة فيقول فى كتابه (دلائل الإعجاز)... هل تجد أحداً يقول هذه اللفظة فصيحة إلا وهو يعتبر مكانها من النظم وحسن ملاءمة معناها لمعانى جاراتها وفضل

(١) عز الدين إسماعيل : **الأسس الجمالية فى النقد العربى**، ص ٢٣٣ .
(٢) عز الدين إسماعيل: نفس المرجع، ص ٢٣٦ .

مؤانستها لأخواتها، وليس الغرض بنظم الكلمة إن توالت ألفاظها فى النطق بل إن تناسقت دلالاتها وتلاقت معانيها على الوجه الذى اقتضاه العقل»[1]

وهكذا نستخلص من كلام ابن الأثير والجرجانى أن اللفظ المجرد لاجمال فيه ولا قبح ولكن الجمال يكمن فى علاقة اللفظ بغيره من الألفاظ. فنحن حينما نحكم بجمال الكلام فأننا نحكم بجمال هذه العلاقات.

ولعل عبد القاهر الجرجانى بتفكيره هذا _ فى العلاقات الفنية، وفى الوحدة العضوية للعمل الأدبى إلى جانب القيم الإيقاعية كمقومات للشكل الجميل- يكون قد تنبه إلى اتجاه فى غاية الأهمية يتيح تحديد الأسس المشتركة فى جميع الفنون.

وعلى ذلك فان الجرجانى كان بهذا التفكير بعيد النظر إذ تمثل فى ذهنه ذلك الأساس المشترك الذى يجمع مختلف الفنون التعبيرية والتشكيلية على السواء. وهو بهذا المفهوم يبلور الموقف العربى العام من الجمال ومقوماته فى مختلف الفنون ومن بينها فنون القول.

وهكذا رأينا كيف تمثلت عناصر الإيقاع والوحدة كمقومات للشكل الجميل عند النقاد العرب. ويجدر بنا أن نستعرض بصفة عاجلة كيف تمثلت مفاهيم هذه المقومات عند نقاد الغرب المعاصرين حتى نرى مدى انعكاس هذه المفاهيم العربية على الفكر الأوربى الحديث.

تحدث كل من (سوريو) و(كانت) عن الإيقاع فى العمل الفنى وعرفاه بأنه هو التنظيم المتوالى لعناصر العمل الفنى المتغيرة كيفيا. وان كان الإيقاع من صفات الصورة الجميلة التى تشترك فيها جميع الفنون إلا أن هذه القيم الإيقاعية تتحقق فى أجلى صورة فى رأى (سوريو) و(كانت) فى فن الموسيقى وفن الأرابيسك. ولعل مفهوم (كانت)و(سوريو) للأرابيسك _ هذا الفن المميز للروح العربية بوجه عام- يقودنا إلى نتيجة على جانب كبير من الأهمية وهى أن هذه القيم الإيقاعية هى ذلك الأساس المشترك الذى تقوم عليه الفنون العربية جميعا من شعر وموسيقى وزخرفة، حيث أن الشعر الجميل عند النقاد العرب ينطوى أساسا على تلك الصور الميلودية الإيقاعية التى تنطوى عليها الموسيقى والأرابيسك.

---

(١) عز الدين إسماعيل: نفس المرجع، ص ٢٣٦ .

أما عن العلاقات بين أجزاء الصورة الجميلة فهى نظر (هاربرت) أساس للشكل الجميل، لدرجة أنه يجعل الصورة تتكون من علاقات فقط ولا شئ سواها، وهو بذلك يطلق عليها (العلاقات الاستاطيقية الأساسية) حيث أن المفردات فى حد ذاتها ليست موضوعاً للحكم الجمالى.

أما عن الوحدة العضوية للعمل الفنى فقول الدكتورة أميرة مطر فى معرض حديثها عن مقومات الصورة الفنية: «ويعنى هذا أن ترتبط أجزاء العمل الفنى فيما بينها لتكون كلا واحدا، وكل المبادئ الأخرى ينبغى أن تخدم هذه الوحدة التى ذكرها القدماء فى تحديدهم للجمال الفنى بقولهم الوحدة فى الكثرة، وهى تعنى ألا يكون العمل الفنى ناقصاً أو مفتقدا لشئ يضاف إليه حتى يتم اكتماله، ولا ينبغى أن تزيد فيه أجزاء لا داعى لوجودها.

وهذا المبدأ يقضى بتحقيق الوحدة بين الصورة، والمضمون فى العمل الفنى»[1]

وهكذا نجد أن الفلاسفة والنقاد المعاصرين من أنصار المدرسة الشكلية ينادون بدراسة الشكل الفنى، ويهتمون بتحليل الجمال ومقوماته فى الصورة الفنية فى مختلف عناصرها فيكشفون فيها عن قوانين الإيقاع، والعلاقات بين عناصر الشكل، والوحدة التى تجمع هذه العناصر فى كل مترابط. وإذا كان نقاد الغرب يتجهون هذا الاتجاه، ويسلكون ذلك المسلك اليوم _ فلقد رأينا أن نقاد العرب المسلمين قد فعلوا نفس الشئ قبل أن يتنبه علماء الغرب إليه من قرون عدة. بل أن نقاد العرب قد ذهبوا إلى أبعد من ذلك فى تمسكهم وتشددهم بمقومات الصورة الجميلة فى العمل الأدبى حيث كانوا يتخذون هذه القوانين أساسا لأحكامهم الجمالية على الشعر، ويحاسبون الشعراء على هذا الأساس .

ثانيا: الأنماط الجمالية فى التصوير القرآنى

أن للقرآن الكريم منطقه الخاص وطريقته المميزة فى التعبير عن موضوعاته. ولم يكن هذا المنطق بحال منطق الذهن والجدل الذهنى، بل كان دائماً المنطق الوجدانى والجدل التصويرى، وفرق كبير فى قوة الإقناع وبلاغة التأثير ودرامية التعبير _ بين المنطق الذهنى والمنطق الوجدانى، بين الواقع التقريرى والجدل التصويرى.

(١) د. أميرة مطر: **مقدمة فى علم الجمال**، ص ٤٢ .

ولما كان الذهن الانسانى. مهما تفجرت طاقاته واتسعت قدراته. قوة صغيرة ومحدودة تعجز عن إدراك آيات القدرة الإلهية والسبحانية الربانية بسهوله ويسر. فقد التفت القرآن عن مخاطبة الذهنى البشرى إلى مخاطبة الحس والوجدان. وذلك بمنطق التصوير لا التقرير، ولمنطق التصوير وسيلته التى ميزت أسلوب تناول القرآن لمختلف الموضوعات الإلهية التشريعية والعقائدية والتعبير عنها.

حيث يقوم هذا المنطق على تحويل المجردات إلى محسوسات يدركها الحس البشرى وينفعل بها الوجدان الانسانى.

وهكذا كانت طريقة القرآن فى تصوير المعانى الذهنية المجردة والحالات النفسية وإبرازها فى صور حسية ملموسة سواء فى المشاهد الطبيعية أو الحوادث والقصص المروية والأمثال أو مشاهد خلق الكون والقيامة.

« أنها لوحات تصويرية حية تبدو شاخصة للعيان بأشكالها الحية وهيئاتها التى تموج بالحركة وبخطوطها، وألوانها وظلالها، بإجمالها وتلخيصها و دقائقها وتفاصيلها وفى هذه اللوحات القرآنية يلتقى الغرض الدينى بالغرض الفنى فى كل متكامل لا ينفصل.

فعلى المستوى الأول تتحقق الدعوة وترسخ العقيدة وعلى المستوى الثانى تستثار الانفعالات الوجدانية وتستشعر اللذة الفنية والمتعة الجمالية. وهكذا يملك القرآن الكريم تلك القدرة السبحانية العظمى على أن يصور بالألفاظ والكلمات ما تعجز عن تصويره الريشة الملونة أو العدسة المصورة.

«فهو يعبر بالصورة المحسة المتخيلة عن المعنى الذهنى والحالة النفسية وعن الحادث المحسوس والمشهد المنظور، وعن النموذج الانسانى والطبيعة البشرية، ثم يرقى بالصورة التى يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة أو الحركة المتجددة، فإذا المعنى الذهنى هيئة أو حركة وإذا الحالة النفسية لوحة أو مشهد وإذا النموذج الانسانى شاخص حى، وإذا الطبيعة البشرية مجسمة مرئية، فأما الحوادث والمشاهد والقصص والمناظر فيجسدها شاخصة حاضرة فيها الحياة وفيها الحركة فإذا أضاف إليها الحوار فقد استوت لها كل عناصر التخييل»[1]

(١) سيد قطب: التصوير الفنى فى القرآن، ص ٣٤ .

إنه تصوير للحياة كاملة بكل ما فيها ومن فيها، بل تصوير للكون كله والوجود كله دنياه وآخرته، تصوير تقوم به ـ بإعجاز واقتدار وفى اتساق وجمال ـ ألفاظ جامدة تأخذ تراكيبها ومعانيها من أبجدية معدودة الحروف، فلا ريشة ترسم وتصور، ولا ألوان تلون وتجسم وتظلل، ولا شخوص تمثل وتعبر، ولا رواة يروون ويحكون ويتحركون، ولكن مع كل هذا فالتصوير الجمالى فى القرآن الكريم ـ فى الوقت ذاته- هو تصوير باللون والحركة والحوار وجرس الكلمة ونغم العبارة وإيقاع السياق وجمال التناسق والاتساق ليأتى فى النهاية تصويراً وإيقاعا جماليا تتملاه الأذن والعين والحس والخيال والفكر والوجدان. وهنا تكمن أسرار الإعجاز فى التعبير القرآنى.

ويمكن هنا أن نحصى الأنماط الجمالية ووسائل التصوير الجمالى فى القرآن الكريم عن مختلف الموضوعات والتى وردت فى آيات القرآن الكريم، فى الأنماط التالية:.

١- تصوير المحسوس بمحسوس.

٢- تصوير المجرد بمحسوس.

٣- التجسيم المتخيل للصورة الحسية.

٤- الإطالة والتقصير فى زمن الحدث.

٥- ضرب الأمثال للتشبيه والعظة.

وسيتناول الكاتب كل نمط من الأنماط السابقة بشئ من التفصيل مع التمثيل.

وقبل هذه الخطوة لابد أن نشير إلى أن التصوير الجمالى فى التعبير القرآنى يقوم أساساً على تحويل المعانى والأفكار والتصورات الذهنية إلى صور حسية ينفعل لها القارئ والسامع. وذلك باعتبار «أن الإدراك الحسى هو انتقال صور المحسوسات فى الحواس، وأن المحسوسات كلها تتأدى صورها إلى آلات الحس وتطبع فيها فتدركها القوى الحاسة، وبذلك يكون الإحساس ظاهرة نفسية إدراكيه تحدث نتيجة انفعال يقع على الحس من المحسوسات الخارجية »[١]

ولقد كان لعوامل الجنس والبيئة وغيرها من المقومات الحضارية أثرها الواضح فى تشكيل الملامح العقلية والسمات الوجدانية للإنسان العربى والمسلم، وبالتالى أثرها

(١) محمد عثمان نجاتى: الإدراك الحسى عند ابن سينا، ص ٤٦ .

الهام فى تشكيل تفضيله الجمالى. إن الإنسان العربى- عقلا ونفساً ومزاجا _ سواء كان إنسانا عادياً أم شاعراً أم فنانا وسواء كان مبدعاً أو متذوقاً، قد تمثل لديه المفهوم الحسى للجمال وإدراكه، حيث يعطى اعتباراً كبيراً للذة الجمالية الناتجة عن اللذة الحسية التى هى ثمرة فعل الحواس الإنسانية المختلفة.

ومن هذا المنطلق تشترك الفنون العربية جميعا من فنون القول والشكل والصوت فى هذه النزعة الحسية.

«ويرجع إلى هذا الاتجاه الواقعى العملى فى الفن الميل العربى إلى تغليب الجانب الحسى فى الفن والأدب، والجانب القريب دون الاعتماد على الجوانب الخفية أو البعيدة أو العميقة»(١)

ويضيف الأستاذ زكى محمد حسن إلى ذلك قوله: «فالمعيار الأساسى فى الحكم على معظم الآثار الفنية الإسلامية هو النظر دون الفكر، فليس غريبا أن تعمل فنون الإسلام على أن تكسب فى ميدان الزخرفة ما فاتها فى ميدان التأليف الفنى»(٢)

هذا الاتجاه الحسى الذى يقوم على الشكل وما ينطوى عليه من قيم جمالية تبعث إلى العين الارتياح والى النفس النشوة والاستمتاع، والذى نلمسه بوضوح فى الفنون الزخرفية الإسلامية نراه متجليا فى الأدب العربى فهو يهتم فى الصورة بالتشبيهات الحسية وكذلك نراه - على حد تعبير د. سلام فى نفس الموضع _ يتطور إلى أدب اللفظ أى يعتمد على جمال العبارة وألفاظها وأجزائها الجملية وما تبديه من انسجام شكلى فى فنون البديع المختلفة. وعن مقارنة الزخرفة العربية بالأدب العربى والشعر بصفة خاصة من حيث اشتراكهما فى الطابع الحسى يستطرد الدكتور زغلول سلام قائلا: ويظهر كذلك بوضوح اتجاه الفنان المسلم إلى الزخرف والتكوين الزخرفى البصرى بكل عناصره من ميل إلى التشكيل الهندسى، وتناظر الوحدات والتكرار، ثم تعدد الألوان وتقابلها دون تدرج أو عمق فى التصوير مما اكسب الفن العربى ذوقا خاصا _ وهذا الذوق المسيطر على الفن نجده كذلك يسيطر على الأدب فقد اكتسب الأدب

(١) د. محمد زغلول سلام: **النقد العربى الحديث**، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٦٤ ، ص ٢٩ .
(٢) زكى محمد حسن : فنون الإسلام، ص ٦٧٨ .

بفن البديع هذا التعميق الزخرفى نفسه ونستطيع أن نقارن بين عناصر الزخرفة العربية وفنون البديع المختلفة»[١]

وبوسعنا أن نضيف إلى فنى الزخرفة العربية والشعر فن الموسيقى العربية أيضا الذى يشترك معهما فى الطابع الزخرفى والتلوين الصوتى والزخارف اللحنية عن طريق الإيقاعات الراقصة والمتميزة وعن طريق تقابل الألحان وتنويعاتها وعن طريق التلوين النغمى الذى يسر الأذن ويحقق نشوة الاستماع ولذته.

وإذا كانت الزخارف العربية تحقق إرضاء حاسة البصر حيث تستمتع العين بها عند النظر إليها والى أشكالها وألوانها وتناظرها وتكرارها. فان فن البديع الذى ينطوى عليه الشعر والأدب العربى يرمى كذلك إلى إرضاء حاسة السمع وذلك بالجناس وضروبه المختلفة والتورية، والطباق وسائر الحلى والمحسنات اللفظية. ولقد تحدث الناقد العربى (الرمانى) فى كتابه (النكت فى إعجاز القرآن) عن مخاطبة الشعر للحواس بالاستعارات والتشبيهات ذاكرا أن قوتها تعتمد على أنها تخاطب هذه الحواس أو تستعين بها فى إبلاغ ما وراءها من المعانى» [٢]

أما الباحثة (روزغريب) فتؤكد ذلك الجانب الحسى فى الشعر بقولها : «والشعر أيضا تصوير: صورة نظرية وسمعية ولمسية وذوقية ومتحركة، يستمد قوته من التصوير المحسوس فى جميع أشكاله، وينفر من المجردات ويرتاح إلى التشبيه والاستعارة والتمثيل والحركة وما يرافق ذلك من تخطيط وتكوين ومادته المعانى المحسوسة التى تفيض بالحركة والحياة »[٣]

ولننتقل إلى التمثيل لأنماط التصوير الجمالى فى القرآن الكريم :

---

(١) د. محمد زغلول سلام: نفس المرجع، ص ٣٠ .

(٢) محمد زغلول سلام : النفس المرجع، ص ٤٠ .

(٣) روز غريب : **النقد الجمالى، ص ٩٥** .

١- تصوير المحسوس بمحسوس:

الصيغ التشبيهية هى إحدى وسائل التصوير الجمالى والتعبير البلاغى فى اللغة العربية، والغرض منها هو تقريب صفة الشئ المشبه. من شكل وقول وفعل- إلى إدراك المتلقى وحسه وخياله بشكل أكثر وضوحا وأعظم تأثيراً وأوضح إحساساً وابلغ تصورا من مجرد إخبار المتلقى عن طريق التقرير السلبى لواقع المشبه وصفاته.

ولعل أول أنواع التصوير الجمالى فى القرآن الكريم هو تصوير الأشياء الحسية والموجودات المادية بموجودات حسية أخرى. كمثل قوله تعالى:

﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَاداً ۝٦ وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً ﴾ (النبأ: ٧).

أى جعل الجبال كالأوتاد للأرض لتثبيتها كما تثبت الخيام فى الأرض بواسطة الأوتاد.

وقوله: ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ ۝١٠ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ (الفجر: ١٠ـ١١)

أى أن فرعون الطاغية الجبار له جنود وجموع وجيوش تشد ملكه وتثبته كالأوتاد فى الأرض.

وقوله تعالى : ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ (يس: ٣٩).

أى والقمر يسير فى مراحل مختلفة يتغير فى كل ليلة منها خلال دورته التى تبلغ ثمانية وعشرين ليلة، فإذا كان فى آخر منازله كان حجمه دقيقاً وشكله مقوساً، مثل غصن النخل اليابس حين يجف وينحنى بعد ما يؤخذ رطبه.

ويقول سبحانه:

﴿ فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْراً مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقًا ۝٤٠ أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْراً فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ﴾ (الكهف: ٤٠، ٤١)

أى يرسل على البستان صاعقة من السماء تدمرها فتصبح أرضاً ملساء تنزلق من عليها الأقدام، جرداء لانبات فيها ولا شجر، ويغور ماؤها بشدة فى الأرض فيتلف كل ما فيها من الزرع والشجر.

وقوله سبحانه:

﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴾.

أى عند ما أمر الله موس بطريق الوحى أن يضرب بعصاه البحر، فضربه فانشق وانفلق وانشطر فكان كل جزء منه ضخما وكبيراً كالجبل الشامخ الثابت.

ويقول تعالى :

﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾ (نوح: ٧)

يصف نوح عليه السلام قومه المتكبرين العاصين عندما دعاهم إلى طاعة الله والإقرار بوحدانيته نفروا واعرضوا، وسدوا أذانهم بأصابعهم حتى لا يسمعوا دعوته، وغطوا وجوههم ورؤوسهم بثيابهم حتى لا يروه أو ينظروا إليه.

وقوله تعالى :

﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ (الحجر: ٢٢)

فلقد شبه الله تعالى الرياح بالفحل بالنسبة للسحاب والشجر، حيث تقوم الرياح بتلقيح السحاب فيدر ماء، وتلقح الشجر فيتفتح عن أوراقه وأكمامه.

وقوله : ﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ (محمد: ٢٤)

بمعنى أن الذين لعنهم الله قلوبهم غليظة قاسية منغلقة ومظلمة، لا يعطونها فرصة لتفهم القرآن وتدبره وكأنها مكبلة ومقفلة بالأقفال الحديدية فلا ينفذ إليها نور الإيمان.

٢- تصوير المجرد بالمحسوس :

ويعنى التشبيه الحسى للأفكار المجردة والمعانى الذهنية والحالات النفسية والمعنوية لتقريبها إلى ذهن القارئ والسامع، وإدراكه الحسي. ومن أمثله هذا التصوير قوله تعالى :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا﴾(١)

---

(١) سورة البقرة : أية ٢٦٤ .

ففى هذه الصورة تشبيه الرياء وإنفاق المرائى لما له وإبطال هذه الإنفاق بالرياء، بالحجر الناعم الأملس الذى يعلوه طبقة من التراب ينخدع فيه الناظر إليه فيظن أنه أرض خصبة طيبة منبتة فإذا أنزل عليه المطر أزال عنه الغبار والتراب وبقى الحجر أملساً صلدا كحالته الأصلية. وهكذا حال المنافق حيث يظن أنه سيثاب يوم القيامة على إنفاقه لماله فإذا هو لا يجد أى ثواب أو أجر.

وفى تصوير جمالى آخر يبلغ إعجاز التعبير القرآنى ذروته فى تشبيه المجردات بالمحسوسات حيث يقول تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾(١)

حيث يصور الله تعالى الكافرين والمستكبرين بآيات الله بأن دخولهم الجنة هو أمر مستحيل الحدوث أو التحقيق وهذه الاستحالة هى كاستحالة دخول الجمل الضخم من ثقب إبرة الخياطة.

وفى تفسير آخر لهذا التشبيه ما أورده (سيد قطب) :

«ويدعك ترسم بخيالك صورة لتفتح أبواب السماء، وصورة أخرى لولوج الحبل الغليظ فى سم الخياط. ويختار من أسماء الحبل الغليظ اسم (الجمل) خاصة فى هذا المقام ويدع للحس أن يتأثر عن طريق الخيال بالصورتين ما شاء له التأثر ليستقر فى النهاية معنى القبول ومعنى الاستحالة فى أعماق النفس وقد ورد إليها من طريق العين والحس. تخييلا- وعبرا إليها من منافذ شتى فى هينة وتؤدة لا من منفذا الذهن وحده بل فى سرعة الذهن التجريدية» (٢)

وفى صورة تشبيهية بديعة أخرى يقول تعالى :

﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾(٣)

---

(١) سورة الأعراف : آية ٤٠ .

(٢) سيد قطب : **التصوير الفنى فى القرآن**، ص ٣٦ .

(٣) سورة التوبة : آية ١٠٩ .

حيث وردت هذه الآية الكريمة على سبيل التشبيه والتمثيل لعمل المؤمنين أهل التقوى والإخلاص، وعمل المنافقين وأهل الضلال. والاستفهام فى الآية للتذكرة وتوضيح الفارق بين هؤلاء وهؤلاء ذلك أن المؤمن الذى يؤسس بنيانه على تقوى الله وخشيته وطاعته، ليس كالذى أسس بنيانه على حافة واد مصدع آيل للسقوط فلا يتحمل هذا البنيان وسرعان ما ينهار به ويسقط به فى نار جهنم.

وفى تصوير المعانى المجردة والحالات المعنوية والنفسية بصورة المحسوس، قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾(١)

أى أن العاصين والجاحدين الذين عصوا الله بسيئاتهم سيجزون على السيئة من أعمالهم بمثلها وتغشاهم الذلة والهوان والانكسار لسخط الله عليهم فكأنما اكتست وجوههم بقطعة من سواد الليل، وذلك من فرط سوادها وظلمتها.

وفى موضع آخر تأتى هذه الصورة الحسية البليغة للتعبير عن أولئك الذين يبايعون ويعاهدون ويشهدون الله على إيمانهم وعهودهم، ثم يعودون لينقضوا ما عاهدوا به. حيث يشبههم الله تعالى بتلك المرأة الحمقاء التى تغزل غزلها و تفتله متينا محكما ثم تعود فتحله و تنفضه أنكاثا وأنقاضا. فتقول الآية الكريمة:

﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا ﴾(٢)

وهذا هو تصوير جمالى آخر بتشبيه المعنويات والمجردات بالمدركات الحسية فى قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ﴾(٣)

---

(١) سورة يونس : آية ٢٧ .
(٢) سورة النحل : آية ٩٠ ـ ٩١ .
(٣) سورة المنافقون : آية ٣، ٤ .

ففى هذه الآية وصف للمنافقين الذين آمنوا بألسنتهم وكفروا بقلوبهم، والذين ختم الله على قلوبهم وأغلقها فلا يصل إليها هدى ولا نور، فلا يفرقون بين الخير والشر وبين الإيمان والكفر. أولئك تنخدع فيهم فتعجبك هيئاتهم ومناظرهم لحسنها ونضارتها وجمال أجسامهم، وتزويق كلامهم وحسن حديثهم وفصاحتهم وذلاقة ألسنتهم، ولكنهم بهيا كلهم هذه يشبهون ألواح الخشب المسندة إلى الحائط فهى أشباح بلا أرواح، أدمغتهم خاوية من الفهم، وقلوبهم فارغة من الإيمان.

وفى آية أخرى يخاطب الله تعالى بنى إسرائيل بعد أن أنزل عليهم المن والسلوى بأن يأكلوا من طيبات ما رزقهم من الطيب ولحم الطير الشهى وألا يظلموا ولا يرتكبوا المعاصى حتى لا ينزل بهم غضبه، ذلك لأن من ينزل عليه غضب الله وعقابه فقد هلك، شقى وكأنما هو يهوى وينحدر ويسقط إلى أسفل الطبقات من عذاب الله، فيقول تعالى :

﴿كُلُوا من طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ ﴾[1] وفى هذا تصوير لعاقبة كل من يحل عليه غضب الله ويتجلى ذلك فى تصوير السقوط من أعلى القمم مقذوفاً به بكل اندفاع وشدة إلى الهوة السحيقة فى أسفل بما يصحب هذه الصورة من هلاك وشدة الارتطام بالأرض.

وفى صورة أخرى أكثر حركة وأسرع إيقاعاً يصور الله نفس المصير المحتوم لمن يشرك بالله حيث لا يقوى على الثبات والاستقرار فسرعان ما يهوى إلى مصيره المحتوم.

﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾[2]

وفى مجال تصوير الحالات العاطفية والنفسية والمعانى المجردة بالمدركات المادية المحسوسة، نتأمل هذه الصورة التشخيصية التى تموج بالحركة وقوة التأثير فى تثبيت المعنى المقصود من التشبية، فيقول الله تعالى فى تصوير الغاوين من أتباع الشياطين وتحقيرهم: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾.

---

(١) سورة طه : آية ٨١ .

(٢) سورة الحج : آية ٣١ .

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾(١)

فهذا التمثيل البادى الروعة، الظاهر البلاغة لهذا الرجل الذى أتاه الله علماً فانسلخ منه كما تتسلخ الحية من جلدها واستحوذ عليه الشيطان حتى جعله فى زمرة الضالين الراسخين فى الغواية، ولو شاء الله لرفعه إلى منزلة العلماء ولكنه مال إلى الدنيا وآثر لذاتها وشهواتها على الآخرة فأحطه الله أسفل سافلين. وزيادة فى تحقير الله له شبهه بالكلب فى الخسة والدناءه، وذلك الكلب الذى إن طردته وزجرته لهث، وإن تركته لهث.

وفى صورة تشبيهية أخرى لتمثيل المعنويات بالمحسوسات يقول سبحانه وتعالى فى نهى المؤمن عن الغيبة والنميمة باعتبارها من الخصال المذمومة:

﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾(٢)

أى يا أيها المؤمنون لا يذكر بعضكم بعضا بالسوء فى غيبته بما يكرهه، ويزيد الله فى تمثيل شناعة نقيصة الغيبة وقبحها بأكل الأخ للحم أخيه وهو ميت، فإذا كان الإنسان يكره أكل لحم الإنسان فما بالك إذا كان هذا اللحم ميتا، وأن هذا اللحم الميت لأخيه، فوجب على الإنسان كراهة الغيبة بمثل هذه الكراهية بل أشد.

٣- التجسيم المتخيل للصورة الحسية:

ونعنى بهذه الطريقة فى التصوير الجمالى للتعبير القرآنى إضفاء الحياة والديناميكية والحركة على المشاهد المصورة أياً كان مجالها أو موضوعها، مما يعلى من حرارة هذه المشاهد ويرتفع بنبض الحياة فيها فتزداد قوة تأثيرها فى نفس المتلقى وحسه ووجدانه.

وتتمثل هذه الظاهرة فى خلع الحياة على الجمادات وغير الأحياء، من أشياء وظواهر وانفعالات وعواطف وإكسابها صفات الأحياء كالإحساس والتفكير والنمو والحركة، وغيرها من القدرات والملكات الإنسانية، التى «تشارك بها الآدميين وتأخذ منهم وتعطى

(١) سورة الأعراف : ١٧٥ .
(٢) سورة الحجرات : آية ١٢ .

وتتبدى لهم فى شتى الملابسات وتجعلهم يحسون الحياة فى كل شئ تقع عليه العين أو يتلبس به الحس، فيأنسون بهذا الوجود أو يرهبونه فى توفر وحساسية وإرهاف»[1]

فها هى صفات التعقل والتفكير والإرادة والطاعة. وكلها صفات آدمية لا يتميز بها إلا الإنسان _ تمنح للسماء والأرض. ويوجه الله إليها الخطاب فتبادران بالجواب. فيقول تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾[2]

والغرض هنا تصوير أثر قدرة الله تعالى فى المخلوقات وطاعتها لإرادته وامتثالها لأمره ومشيئته. فعندما عمد الله إلى خلق السماء وقصد إلى تسويتها وهى بهيئة الدخان، قال للسماء والأرض استجيبا لأمرى طائعتين أو مكرهتين فقالت السموات والأرض أتينا أمرك طائعين، فهما كالمأمور المطيع إذا ورد عليه أمر الآمر المطاع.

وها هى نفس الصفات والقدرات الإنسانية تخلع على الجمادات، حيث يهب الله صفة النطق والقدرة على الكلام إلى جهنم فيقول سبحانه:﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾[3]

والتمثيل فى هذه الآية لسعة جهنم وامتداد أرجائها لاستيعاب جميع الكفرة والمجرمين واتساعها لهم. ففى هذا اليوم الرهيب يقول الله تعالى لجهنم هل امتلأت فتبادر بالرد قائله هل هناك من زيادة.؟

« والظاهر أن السؤال والجواب على حقيقتهما، والله على كل شئ قدير، فأن إنطاق الجماد والشجر والحجر جائز عقلاً وحاصل شرعاً، وقد ورد فى صحيح مسلم أن المسلمين فى أخر الزمان يقاتلون اليهود حتى يختبئ اليهودى وراء الشجر و الحجر، فينطق الله الشجر والحجر » [4]

وها هى النملة الدقيقة الضعيفة تخاطب رفيقاتها بصوت ناطق مسموع، مخاطبة

---

(١) سيد قطب : المرجع السابق ، ص ٦٤ .

(٢) سورة فصلت : آية ١١ .

(٣) سورة ق : آية ٣٠ .

(٤) محمد على الصابوجى : صفوة التفاسير ، ص ٣، ص ٢٤٦ .

العقلاء بعد تفكير عميق وروية وحكمة وتأمرهم بما يؤمر به العقلاء بأن يدخلوا بيوتهم حتى لا يكسرنهم سليمان وجيوشه بأقدامهم وهم لا يشعرون.

﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾(١)

وها هو الليل البهيم المظلم بكل ما يوحى به من مشاعر وانفعالات وأحاسيس وبما يحتفظ به من لواعج الإنسان ومواجعه وهواجسه وأحلامه وآلامه، ها هو يحظى فى التصوير القرآنى بالكثير من صفات الإنسانية، ومن سمات الحياة ونبضها وحركتها وإيقاعها وحرارتها.

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ (الفجر: ٤)

- والليل يسرع فى طلب النهار : فلا يدركه ويدور الاثنان دورة أبدية سرمدية.

﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾ (الأعراف: ٥٤)

- والليل يسابق النهار فى سباق عظيم لا ينتهى، وفق حساب دقيق وناموس محكم.

﴿لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ (يسُ: ٤٠)

- والليل يسجى ويقبل بظلامه الشديد يفرض ظلمته ويخييم على الكون

﴿وَالضُّحَىٰ (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ (الضحى:١ـ٢).

- والليل يعسعس : يقبل حثيثاً بهدوء وترقب

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾ (التكوير: ١٧)

- والليل يدبر : ويولى راجعاً بهدوء تاركا الصبح وراء ظهره.

﴿وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ (٣٣) وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ﴾ (المدثر: ٣٣ـ ٣٤)

أما الصبح فقد جعله الله حيًا يتنفس، وينفث الحياة فى الكون ويدب النشاط فى

---

(١) سورة النمل : آية ١٨ .

حركة الحياة والكائنات وتضاء الدنيا بنوره وترتسم لوحة الشروق على صفحة الكون البديعة فى جمال محبب إلى النفس.

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾

وها هو النهار وقد اكتسب صفة الإبصار أهم حواس الكائن الحى، حيث يقول سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً﴾[1]

«فى هذه الآية استعارة عجيبة حيث وصف النهار بأنه مبصر لأن الناس يبصرون فيه فكأن ذلك صفة الشىء بما هو سبب له على طريق المبالغة كما قالوا : «ليل أعمى وليلة عمياء إذا لم يبصر الناس فيها شيئا لشدة إظلامها»[2]

ويتكرر نفس المعنى فى آيات أخريات حيث يكتسب النهار وعلاماته صفة الإبصار : ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾[3]

وها هى النفس الإنسانية ـ فى صورة جمالية روحانية أخرى ـ وها هى الروح يكرمها الله ويخاطبها بكل الرضى والتكريم ويهبها الحركة الحسية رجوعاً ودخولاً :

﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٢٩﴾ وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾[4]

وغير هذا كثير من الألفاظ والمسميات لهيئات ومخلوقات جامدة يخلع عليها القرآن الصفات الإنسانية من حواس ومشاعر وإدراكات حيث يبلغ الإعجاز مداه فى اختيار الألفاظ لمواضعها، ونهوض هذه الألفاظ برسم الصور على اختلافها ـ تلك الصور الجمالية التى تجسد المعنى فى ذهن المتلقى وتحقق الغرض الدينى والوقع الجمالى فى آن واحد.

فالأرض (خاشعة) و(هامدة) و(راجعة)، والعيشة (راضية)، والظل (كريم)، والغيث (يهيج)، والعين(جارية)، والنعاس (يغشى)، والريح (لواقح)، والكلمة (تكبر)، والطامة (كبرى)، والدواب (صم بكم)، والنار (تطلع على الأفئدة، إنها عليهم موصدة، فى

(١) سورة يونس : آية ٦٧ .
(٢) صفوة التفاسير : ص ٥٩١ .
(٣) سورة الإسراء : آية ١٢ .
(٤) سورة الفجر : آية ١٢ .

عمد ممددة)، والجدار (ينقض)، والطير (يقبضن)، وهكذا فكل هذه الجمادات أحياء في التصوير القرآني.

٤- التقصير والإطالة في زمن الحدث:

أن المتأمل الواعي، والمدقق الفاهم عندما يستعرض آيات الكتاب الحكيم ليتبين في أسلوب تصويره وسياق تعبيره سمة جمالية هامة ووسيلة فنية بالغة التأثير لتحقيق التناسق الأمثل والتواؤم بين تحقيق الغرض الديني والأثر الجمالي معاً. تلك هي خاصية تكثيف الأحداث أو تمديدها وفق ما تتطلبه طبيعة الموضوع والموقف والحدث زماناً ومكاناً، ومناسبة ومقاماً.

«فبعض المشاهد يمر سريعاً خاطفاً يكاد يخطف البصر لسرعته، ويكاد الخيال نفسه لا يلاحظه، وبعض المشاهد يطول ويطول حتى ليخيل للمرء انه لن يزول، وبعض المشاهد الطويلة حافل بالحركة وبعضها شاخص لا يريم، وكل أولئك يتم تحقيقاً لغرض خاص في المشهد يتسق مع الغرض العام للقرآن ويتم به التناسق في الإخراج أبدع التمام» (١)

ومن أمثلة تكثيف الأحداث وتقصير مدة عرضها واختصار زمن حدوثها، تلك الصورة الموجزة والمعبرة والملخصة في بلاغة لعملية خلق هذا الكون فيقول الله تعالى ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾(٢)

في هذا الموضع تحديداً شاءت إرادة الله وحكمته ليعرض خلق الكون بشكل موجز وفي ومضه سريعة ... الأرض وما عليها من كائنات وأحياء وجمادات وأنهار وبحار والسماوات السبع ... عرض كل ذلك دون أية تفاصيل أو إطالة حيث لا يريد هنا هذه التفاصيل وتلك الإطالة، بل أرادها تقريراً جامعاً مانعاً غاية في البلاغة والتعبير.

وفي صورة جمالية أخرى خاطفة وامضة، ولكنها بليغة معبرة، تكثف الحدث وتختصر الخطوط وتنتزع التفاصيل لتحشد هذه الشحنة التعبيرية عن الموضوع، يقول

---

(١) سيد قطب : **التصوير الفني في القرآن**، ص ١٠٧ .

(٢) سورة البقرة : آية ٢٩ .

تعالى فى تصويره لتلك الحياة الدنيا، والمتناهية القصر على طولها : ﴿مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ ﴾(١)

فكهذا بسرعة خاطفة تبدأ الحياة وتنتهى، وتبرز فى الصورة لحظتى البداية والنهاية، بسرعة خاطفة تبدأ الحياة وتنتهى، وتبرز فى الصورة لحظتى البداية والنهاية فقط بينما تختصر وتختفى كل ما بينهما من أحداث وتفاصيل وعمليات. فينزل الماء من السماء على النبات فينضج ثم يصبح يابساً هكذا وبالسرعة المطلوبة يتحقق التناسق بين الصياغة والغرض وبين المقام والمقال.

وفى نموذج أخر للقصر باختصار المراحل وادماجها، وتكثيف الأحداث وضغط امتداد الزمان واتساع المكان. يقول تعالى فى تصوير جمالى بليغ وفى تعبير فنى مؤثر للوحة الحياة ومداها المتناهى فى القصر ما بين بدايتها ونهايتها : ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴾(٢)

فهذه الحياة الدنيا بأموالها وبنينها، وبجاهها وسلطانها، ولهوها ولعبها، ولذاتها ومتعها وزينتها ومتاعها، وبما يشغل الناس من تناسل وتكاثر وتفاخر بالأموال والرجال، والأولاد والبنات والعقار والممتلكات، وكل ما يشغل الإنسان فى مشوار حياته الطويل من لحظة ميلاده إلى لحظة وفاته، كل هذه الحياة السريعة وتمر فى لحظة خاطفة ما تلبث أن تولد حتى تنتهى، فى أقصر ما تصور به هذه الحياة من تصورها بلفظين من (التكاثر) كبداية إلى (المقابر) كنهاية. فما أجمله من تصوير، وما أبلغه من تعبير.

وعلى الجانب المقابل تتجلى ظاهرة إطالة الأحداث وتمديد زمن حدوثها بتعدد التفاصيل وتجزىء المراحل وتفتيت الأحداث عندما تتطلب طبيعية الموضوع أو تحتمه ضرورة الغرض الدينى، أو تفرضه دراما التأثير وحتمية التعبير.

وفيما يقابل الصورة الأولى التى عرضنا إليها عن مشهد نزول المطر على الزرع فى تصوير قائم على ظاهرة تقصير الحدث وإلغاء تفاصيله، يعرض لنفس الموضوع ولكن بصياغة الإطالة والتفصيل فى آية أخرى. فيقول تعالى :

---

(١) سورة الكهف : آية ٤٥ .

(٢) سورة التكاثر : آية ١، ٢ .

﴿ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾(١)

وترتسم هذه اللوحة التفصيلية فى ذهن المتلقى وخياله على النحو التالى :

الله يرسل الرياح ويصّرفها بإرادته، ويجعلها بمشيئته مبشرات برحمته، فيرسلها ويحركها ويجعلها تهب على الكون فتحرك السحاب بقوة دفعها وتسوقه أمامها، فيبسطه الله ويكثره وينميه وينشره فى السماء ويوزعه فى أرجاء الأفق كيف يشاء موزعاً هنا أو هناك بقلة أو بكثرة، خفيفاً أو كثيفاً، مطبقاً أو غير مطبق، أو يجعله قطعاً متفرقة داكنة السواد من كثرة مائها، تراها العين ثقيلة مدلهمة تكاد تقترب من الأرض لفرط ثقلها.

وينزل المطر من السماء من هذه السحب ينهمر شديداً أو فى قطرات خفيفة، على من يشاء الله من عباده فإذا هم يسارعون بالبشر والفرح والسرور والابتهاج لشدة حاجتهم إليه.

هكذا وبهذه التؤدة، وهذا البطء، وبهذا الإيقاع المتهادى الذى تفرضه ضرورة الغرض الدينى ودراما التصوير الفنى تزداد التفاصيل وتتجزأ المراحل فى خيال المتلقى وتتمدد رقعة الأحداث على مستوى الزمان بهذه الإطالة الجمالية البديعة فى سياق التأثير الفنى والتعبير الجمالى المعجز.

وفى مقابلة تصويرية بديعة بين أسلوبى التقصير والإطالة فى التعبير القرآنى نسوق نموذجاً لأسلوب الإطالة فى تصوير موضوع بدء الحياة ونهايتها والذى سبق وأن عرضناه مصوراً بأسلوب التقصير.

فبينما عرضنا فى سورة التكاثر تصوير الحياة بدءا وانتهاءً بكلمتين فقط (التكاثر والمقابر) فى لحظة خاطفة، تعرض الصورة التالية فى الآية لمرحلة محددة جداً من هذه الحياة وهى مرحلة تكوين الجنين فى رحم الأم، حيث تصور هذه المرحلة بأسلوب الإطالة.

---

(١) سورة الروم : آية ٤٨ .

فيقول تعالى : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾(١)

فى هذه الآية يعرض الله مراحل تكوين الجنين منذ أن كان حيواناً منوياً ينطف من صلب الرجل وتستقر هذه النطفة فى رحم الأم، ثم تتحول هذه النطفة من الماء الدافق إلى الدم الجامد بما يشبه العلقة، ثم يتحول الدم الجامد إلى مضغة من اللحم لا شكل ولا ملامح، ثم تصير قطعة اللحم عظاماً صلبة مكونة عمود البدن ثم تستر هذه العظام وتكسى باللحم، بعد هذه الأطوار تنفخ فيها الروح فتصير خلقاً أخر فى أحسن صورة وأحسن تقويم .

ولأن الآية هنا مساقة للعبرة والعظة وتدبر عظمة الخالق وقدرته وسبحانيته المعجزة فى خلقه، ولأن الغرض الدينى هنا فى حاجة لقوة التأثير الوجدانى وتأكيد عظمة العلم الإلهى، كانت الضرورة إلى ذلك التصوير المطول، والتفاصيل الدقيقة، والمراحل المتتابعة بكل خطواتها ودقائقها التى يستغرق عرضها كل هذا الفراغ والاتساع، بالرغم من قصر هذه المرحلة المحددة من الحياة الآدمية وهذا الجزء الخاص جداً منها، وهى مرحلة الجنين وحدها دون غيرها من مراحل.

ومن المجالات التعبيرية، والموضوعات التصويرية القرآنية التى تتجلى فيها بوضوح ظاهرة الإطالة فى زمن الحدث، هو تصوير مشاهد القيامة من عذاب ونعيم حيث تحتم ضرورة الترغيب والترهيب منها التعبير بهذه الوسيلة، وذلك فيما سيأتى بيانه تفصيلاً فى موضوع لاحق من الكتاب.

٥- ضرب الأمثال للتشبيه والعظة:

﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾(٢)

يزخر القرآن الكريم فى كثير من آياته بصور متعددة من الآيات التى ضربها الله سبحانه للناس فى شتى المواقف والموضوعات سواء كانت حوادث واقعة، أم قصص مروية، أم لتمثيل معان وأفكار مجردة أم لتصوير حالات نفسية وانفعالية.

---

(١) سورة المؤمنون : آية ١٢ ، ١٣ ، ١٤ . (٢) سورة النور: آية ٣٥ .

فى كل هذه الحالات فإن الغرض من الأمثال المضروبة فى القرآن يركز فى اتجاهين هامين هما: تثبيت التصور الدينى وترسيخه، وتقديم النماذج الطيبة والقدوات فى مقابل النماذج الممجوجة والمرفوضة، كل هذا وذاك فى ظل الإتساق مع التصور الاسلامى.

وبوسع الكاتب أن يبدأ بالإشارة إلى بعض النماذج للتصوير الجمالى من خلال ضرب الأمثال فى القرآن.

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٥) وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴾(١)

فى هذه الآية مثل ضربه الله للتفرقة والمقارنة بين كلمة (الإيمان)، وكلمة (الإشراك) فمثل لكلمة الحق والإيمان _ لكونها كلمة طيبة حسنة المنفعة _ بالشجرة الطيبة أصلها ضارب بجذورها فى باطن الأرض، وأقنانها مرتفعة وأغصانها ممتدة نحو السماء، تؤدى ثمارها الحلو المذاق كل وقت عينه الله وحدده بإرادته لإثمارها، وبتسيير الخالق وتكوينه، كذلك كلمة التوحيد والإيمان ثابتة فى قلب المؤمن وعمله يصعد إلى الله فى عرشه وينال بركاته وثوابه فى كل وقت. أما كلمة الكفر الباطلة الخبيثة فهى شبيهة بشجرة الحنظل التى لا أصل لها ولا جذور ضاربة تثبتها فاستؤصلت من جذورها الضعيفة وأقلعت من تربتها وألقيت على الأرض لعدم استقرارها وثبات أصلها، فكذلك كلمة الباطل ضعيفة واهية داحضة لا ثبات لها لأنها لم تعاضد بحجة، وكذلك أيضاً الكافر صاحب الكلمة الخبيثة لا يقبل عمله ولا تصعد دعوته إلى الله تعالى.

وفى مثل قرآنى أخر تصوير بليغ وتعبير فنى شديد الأثر والتأثير لحال الكفار وأعمالهم. فتقول الآية :

﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لاَّ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلاَلُ الْبَعِيدُ ﴾(٢)

(١) سورة إبراهيم : آية ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ .
(٢) سورة إبراهيم : آية ١٨ .

إن أعمال الكافرين التى عملوها فى دنياهم على غير أساس من الإيمان، يبتغون الأجر من الله، هذه الأعمال يمحقها الله كما تمحق الريح العاصفة الشديدة، التى تهب فى يوم عاصف _ كومة الرماد، وهؤلاء الكافرين لا يستطيعون تحصيل ثواب ما عملوا من البر لإحباطه بالكفر ولا ينتفعون بشىء منها إذ لا يجدون لها أثرا شأنهم فى ذلك شأن صاحب الرماد الذى طيرته الريح لا يحصل على شىء منه ولا يجد له أثرا.

وفى هذه اللوحة تصوير غاية فى الجمال ودرامية التأثير، حيث ترسم الرياح بشدة هبوبها وما تنثره من عواصف وأتربة فى هذا الجو المكفهر الذى يشتد فيه البرد وتنعدم فيه الرؤية وتختفى فيه الشمس وتظلم الدنيا وتكتسى اللوحة كلها ألواناً ضبابية داكنة، ويتطاير الرماد ويختلط مع تلك الموجات الهوائية ويتلاشى ويختفى أثره ... وهناك فى طرف اللوحة يبدو على بعد صاحب الرماد وهو يتطلع فى دهشة ولوعة وألم صوب اتجاه الريح، يعانى الخسران والندم على ما ضاع منه.

وفى مثل أخر تصوير للكفار وأحوالهم وأعمالهم وجزائهم تقول الآية :

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾(١)

وفى هذه الصورة يجعل الله لأهل مكة مثلاً يعتبرون به، لأن أهل مكة كانوا يعيشون فى الأمن والخصب والطمأنينة ثم أنعم الله عليهم بعظيم نعمه محمد (ص) فكفروا به وبالغوا فى إيذائه فعذبهم الله بالقحط والجوع سبع سنين حتى أكلوا الجيف والعظام(٢)

ومثل أهل مكة أهل أحد القرى كان أهلها فى أمن من العدو، وطمأنينة من ضيق العيش يأتيهم رزقهم رغداً واسعاً من كل مكان فجحدوا نعم الله عليهم ولم يشكروه بطاعته وامتثال أمره فعاقبهم الله بالمصائب التى أحاطت بهم من كل جانب وجعلتهم يعانون الجوع والخوف من بعد الغنى والأمن بسبب تماديهم فى الكفر والمعاصى.

---

(١) سورة النحل : آية ١١٢ .

(٢) صفوة التفاسير : ص ١٤٦ .

وتتجلى الصورة الجمالية فى هذا التعبير بالتجسيم الحسى الذى يجسد المعنى ويؤكد التأثير الدرامى فى نفس المتلقى وذلك حين يصور العذاب فى صورة حسية فيجعلهم يذوقون مرارته بأفواههم ويلوكونه بألسنتهم وأسنانهم ويجعل الله من الجوع لباساً لهم يلبسونه ويحكم عليهم ويضيق بهم فلا يستطيعون منه فكاكاً.

وفى صورة أخرى ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(١)

فهذا المثل مضروب للتفريق بين الله الإله الحق تعالى، والأصنام الجامدة الباطلة، فالوثن لا ينطق بخير ولا يقدر على شيء لأنه إما حجر أو شجر، وهو بذلك يشبه الإنسان الأبكم الذى لا ينطق فهو قليل الحيلة فاقد القدرة، ثقيل الظل والحركة، عالة على سيده، فحيثما أرسله فى شيء لم ينجح فى مهمته لأنه أخرس ضعيف بليد ... فهل يتساوى ذلك الأبكم مع ذلك الرجل السوى السليم، البليغ المتكلم بأفصح لسان وأبلغ بيان وهو على طريق الحق والإيمان والرشد والاستقامة مستنير بنور القرآن مستهدياً بهدى الإيمان.

«وإذا كان العاقل لا يسوى بين هذين الرجلين، فكيف يمكن التسوية بين صنم أو حجر وبين الله سبحانه وتعالى وهو القادر العليم الهادى إلى صراط مستقيم» (٢)

وإلى مثل آخر ضربه الله للكافرين برجلين أحدهما مؤمن والآخر كافر، ورثا مالاً عن أبيهما فاشترى الكافر بماله حديقتين فى حين أنفق المؤمن ماله فى سبيل الله ومرضاته حتى نفذ ماله فعيره أخوه بفقره، فأهلك الله مال الكافر الذى أبطرته النعمة، وأقر الله عين الفقير بإيمانه وقناعته ورضاء نفسه.

وتصور الآية هذه الخلجات النفسية فى الوجدان البشرى وفى النفس الإنسانية تصويراً جمالياً غاية فى التأثير وغاية فى بلاغة التعبير، فهذا الغرور والتكبر والصلف

---

(١) سورة النحل: آية ٧٦ .

(٢) مختصر بن كثير، عن صفوة التفاسير، ص ١٣٦ .

والتعالى الذى فيه الرجل الغنى وهو فى أوج زهوه وبطره وإزدهائه يقابله كل مشاعر الإيمان والرضا والقناعة والعزة بالإيمان لدى صاحبه المؤمن الفقير، وهو مع فقرة لا يتردد بكل ثقة فى نصح صاحبه إلى جادة الطريق ولو بالتقريع والتوبيخ. وتقول الآية تصويراً لهذه المشاهد المتتالية فى لوحة الصاحبين :

﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا (٣٢) كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَرًا (٣٣) وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا (٣٤) وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا (٣٥) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا (٣٦) قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً (٣٧) لَكِنَّا۠ هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا (٣٨) وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَدًا (٣٩) فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا (٤٠) أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا (٤١) وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا (٤٢) وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴾(١)

هذا هو منطق الوجدان والجدل التصويرى فى التعبير القرآنى، وتلك هى الأنماط الجمالية فى التصوير، هذا المنطق الخاص الذى يختلف عن المنطق الذهنى التقليدى فى التعبير كوسيط اتصالى مألوف، ذلك الذى ينقل المعانى والأفكار والحالات النفسية فى صورتها الذهنية التجريدية ويعبر عنها تعبيراً لفظياً تقريرياً مجرداً. أما القرآن فيعبر عنها تعبيراً حسياً تصويرياً مجسماً ومتخيلاً، وإن كان لا يخلو من منطق الذهن إلا أنه ليس منطقه الوحيد.

---

(١) سورة الكهف : الآية من ٣٢ ، ٤٣ .

ثالثاً: نماذج من التصوير الجمالى فى القرآن

القرآن والجمال فى تصوير خلق الكون

يقول العالم الشهير (اينشتاين) : «إن أعظم خاطرة يمكن أن تجول فى ذهن الإنسان هى ما يتراءى له حين يقف يتأمل فى هذا الكون، فيستطيع أن يرى جمالا ما بعده جمال وكما لا ما يعده كمال ودقة ما بعدها دقة، إن هذا الموقف عندى هو موقف التعبد عند الخلائق »(١)

ويتجلى مفهوم العقيدة الإيمانية فى أبسط صورها ومعانيها فى محاولة تفسير الإنسان للظواهر الكونية من حوله ومعرفة مصدرها ومنشؤها ومحركها.

«ومنذ القدم حاول الإنسان البدائى فهم تلك الظواهر الكونية والتقرب إليها خوفاً منها ومن تدميرها له، فحاول السيطرة عليها بإقامة بعض الطقوس التى كان يعتقد أنها تبعد عنه شر تلك الظواهر وتجعلها مطيعة له وتجعله مسيطرا عليها آمناً لشرها، وظل الإنسان كذلك بعد تكوين المجتمعات وفى عصور الحضارات، فلقد تفاعل المصرى القديم مع تلك الظواهر بطقوس ومعتقدات خاصة وكل ما كان يفعله للتقرب إلى الظاهرة ليأمن شرها، وقد تناول علاقة الظواهر بالأساطير القديمة وغيرها »(٢)

وعندما يتطلع الإنسان بنظره إلى السماء من فوقه والى الأرض من حوله يرى مظاهر إبداع الله تبارك وتعالى فى خلق هذا الكون العظيم وظواهره الحاضرة التى لا تغيب عن المتفكرين فى هذا الملكوت الرائع. ولقد خلق الله هذا الكون العظيم بظواهره المتعددة ودعانا لتدبر عظيم قدرته فى الخلق.

ولا تنتهى تلك الظواهر الكونية عند الظواهر التى تراها العين المجردة، بل بما تكشف عنها معطيات العلم الحديث من وسائل الرؤية المكبرة والمقربة. إن النظام هو آية من آيات الله فى صنع الكون وعظيم خلقه، فكل ما فى هذا الكون قد خلقه وفق نظام محكم، ويمارس دورته ومسيرته وفق هذا النظام المحكم، وتعمل كل هذه العناصر والظواهر فى علاقاتها مع بعضها وفق ناموس دقيق ونظام محكم كذلك. فالكون كله: نجومه وشموسه، سماؤه وأرضه، ليله ونهاره، بحاره وأنهاره، رياحه وبرقه، وكل ما نعلم

---

(١) زغلول النجار: من آيات الإعجاز العلمى فى القرآن، ط١، ص ٥٤ .

(٢) شرين خيرى أحمد: رسالة دكتوراه، مرجع سابق، ص٦ .

من خلق الله وما لا نعلم، وكل ما ندركه بحواسنا أو نعرفه بعقولنا ... كل يسير وفق إرادة الله ومشيئته، وكل يسجد لله ويسبح بحمده ويدين له بالطاعة والولاء، ولولا أدانتها لله لهوت وارتطمت وتخبطت على غير هدى.

ومن معجزات القرآن الكريم ـ الذى دعا لتوحيد الخالق عز وجل، وسن المنهج الذى يسترشد به البشر لتوجيه النفس نحو السمو والرقى ـ أنه يكشف عن حقائق علمية وكونية لا يرتطم بها العقل البشرى عند قراءتها، ولكنه يتوقف عندها ليتفهمها عندما يصل إليها العلم الحديث بأحدث مبتكراته ومكتشفاته.

فما أروع بلاغة القرآن الكريم وما أروع تصويره، وما أقل ما توصل إليه الإنسان من تكشف لحقائق قد أشار إليها القرآن الكريم منذ أكثر من أربعة عشر قرناً من الزمان.

وما أكثر الآيات القرآنية العظيمة التى تدعو إلى توجيه العقل نحو الظواهر الكونية، والتى يقدم بها القرآن الكريم الأدلة المادية على وجود الله الخالق البارىء المصور الذى أبدع كل شيء وأعطى كل شيء خلقه ثم هدى.

ولعل أول ما يتبادر إلى الذهن البشرى من صور لهذا الكون، هو التساؤل عن الصورة التى كان بها الخلق الأول للكون وما هى ملامح تلك الصورة وكيف كانت بداية هذا الخلق ؟

ولقد حاول علماء العصر الحديث بمختلف علومه وفروعه ـ التوصل إلى صورة الخلق الأول للكون وتفسير بداية هذا الخلق تفسيراً علمياً، فذهب بعضهم إلى نظرية (الانفجار العظيم) التى تقول:

«بدأ الكون بانفجار جرم أولى عالى الطاقة والكثافة غاية العلو ـ مما تقف عن بلوغه كل قوانين الفيزياء المعروفة ـ تجعله فى حالة حرجة، ينفجر هذا الجرم بأمر الله تعالى ويتحول إلى غلالة من دخان، يخلق من هذا الدخان الأرض وباقى أجرام السماء، وهذا الدخان يخلق منه دوامات تجمع كما من المادة والطاقة حول مراكز الجاذبية، ويظل هذا الكم من المادة والطاقة فى تكدس على ذاته حتى يتشكل بقدرة الله على هيئة أجرام السماء المختلفة» (١)

(١) زغلول النجار: **من آيات الإعجاز العلمى فى القرآن**، ط١ ، ص ٤٢ .

أى أن الله سبحانه وتعالى استوى إلى السماء وهى ما زالت مع الكون كله سحابة من الدخان، ولأن كل شيء هو فى علمه سبحانه فقد أمر الله السموات والأرض بالتكون والظهور فى الوجود.

وذهب فريق آخر إلى تفسير خلق الكون بما أطلقوا عليه (الانشطار الكبير) فيما قرروه من «أن الكون كله قبل أن تتشكل عوالمه ومجراته ونجومه كان كيانا سديميا غير متميز بعضه عن بعض، ثم أخذ يتميز ويتطور بفعل الجاذبية العامة حتى صار إلى ما هو عليه، ولا تزال السدم الأبلة منتشرة فيه على أبعاد فلكية هائلة» (١)

كما راحوا يؤكدون فكرة الانشطار : «واندلعت المادة من النواة بعد فتقها فى شكل موجات كثيفة ومتتابعة من الجزئيات واندفعت الطاقة أيضاً فى شكل موجات متتابعة من الإشعاعات الغزيرة، وهكذا بدأت كل عناصر المادة والطاقة فى الاندفاع من النواة فشكلت سحابة كونية بدأت تنمو بشكل سريع جداً إلى أن تحولت إلى سحابة من الدخان ملأ الكون كله، ومن هذه السحابة الكونية تشكل بنيان الكون كله»(٢)

ثم يذهبون فى تفسير تمدد الكون واتساعه حتى يبلغ مداه ثم عودته إلى التجمع مرة أخرى ليبدأ منه الخلق الجديد، وذلك فيما أسموه (بنظرية الانسحاق الشديد) حيث «أن عملية اتساع الكون لا يمكن أن تستمر إلى مالا نهاية فسوف يأتى على هذا الكون زمان تتساوى فيه القوتان : القوه الدافعة إلى الخارج بالانفجار والقوة اللامة إلى الداخل بالجاذبية، ثم مع ضعف القوة الدافعة تبدأ قوى الجاذبية فى تجمع الكون مرة أخرى فى جرم واحد مشابه تماماً للجرم الابتدائى الأول الذى بدأ منه الخلق ويتفجر هذا الجرم ويتحول إلى غلاف من الدخان ويخلق من هذا الكون أرض غير الأرض وسماوات غير السموات » (٣)

ومهما كانت نظريات العلماء المحدثين وتفسيراتهم فهى تدور فى فلك ما سبق إليه القرآن الكريم وما بينته آياته المحكمات منذ قرون من الزمان وستظل هذه الآيات هى

(١) محمد أحمد الغمراوى : **الإسلام فى عصر العالم** ، دار الإنسان، القاهرة ، ١٩٩١، ص ٢٤٩ .
(٢) عادل حسين : **الكون وقصة الليل والنهار**، ١٩٩٨ س ١٤ .
(٣) زغلول النجار: نفس المرجع ص ٤٥ .

أصل التصوير والتعبير عن هذا الخلق ... هذا التصوير الأكثر إقناعاً والأبلغ تأثيراً، والأكثر جمالاً، والأقوى فى مخاطبة الحس والذهن والعقل والوجدان.

وبوسع الكاتب أن يشير هنا إلى نماذج من الأنماط الجمالية فى تصوير القرآن لخلق الكون والمظاهر الكونية المختلفة.

يقول تعالى :

﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ﴾(١)

فى هذه الآية حث للعباد على التأنى فى الأمور فإن الله القادر على خلق جميع الكائنات بلمح البصر خلقها فى ستة أيام، وكان العرش على الماء قبل خلق السموات والأرض فما كان تحته من خلق حيث لم يكن الوجود أكثر من عالم الماء ومن فوقه عرش الله.

ويقول تعالى :(٢)

﴿ أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ﴾

﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾

﴿وَجَعَلْنَا فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾

﴿ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾

تبين الآيات الكريمة كيف بدأ خلق الكون ثم تتابع مراحل عملية الخلق وتفاصيل تهذيب صورة الخلق وتعديلها بيد قدرته تعالى، فيبين الله فى الآية الأولى أن السموات والأرض كانتا شيئا واحداً ملتصقين ببعضهما ففصل الله بينهما ورفع السماء إلى حيث هى وأقر الأرض كما هى،وقال بعض المفسرين، أن الله فصل بين السماء والأرض بالهواء وأن السموات كانت رتقاً لا تمطر وكانت الأرض رتقاً لا تثبت ففتق هذه بالمطر وهذه بالنبات.

---

(١) سورة هود : آية ٧ .

(٢) سورة الأنبياء: آية ٣٠ ـ ٣١ ـ ٣٢ ـ ٣٣ .

وفى هذه الآية مقابلة لفظية بليغة حيث التصوير بلقطتين متحدتين فى الجرس متضادتين فى المعنى، وهما كلمتى (الرتق) و(الفتق) والرتق فى اللغة هو الجمع والضم والالتحام والتكديس والالتصاق، وهذا ما كانت عليه السماء والأرض قبل انفصالهما، أما الفتق فهو فى اللغة يعنى الانشقاق والانشطار والانقسام والانفصال، وهى مرحلة انفصال السماء عن الأرض وما يتبعها من توسع فى الكون.

ثم جعل الله الماء الذى فيه أصل كل الأحياء وسبباً للحياة فلا يعيش بدونه إنسان ولا حيوان ولا نبات، وخلق من هذا الماء كل شيء حى على الأرض، كما خلق منه أيضاً كل ما فى أعماق البحار والأنهار من مخلوقات وكائنات حية.

وجعل الله فى الأرض جبالاً ثوابت لئلا تتحرك وتضطرب فلا يستقر لهم عليها قرار. وجعلها رواسى ذات جذور ممتدة إلى أعماق كبيرة فى الأرض، ثم جعل فيها طرقا فسيحة ومتشعبة ومسالك وثغراً يتحرك فيها الناس ويهتدون إلى مقاصدهم فى الأسفار ويسلكونها من مكان إلى مكان.

وجعل السماء كالسقف للأرض محفوظة بالنجوم، ومحفوظة من الوقوع والسقوط مرفوعة على الأرض بلا عمد.

وخلق بقدرته تعالى الليل والنهار، هذا بظلامه وسكونه وذاك بضيائه وأنسه يطول هذا تارة ويقصر هذا أخرى، وخلق الشمس والقمر وكل هذه المجرات تجرى وتسير بسرعة كالسابح فى الماء، وكل يجرى فى مجاله الذى قدره الله له ويسبح فى فلكه لا يحيد عنه.

هذه لوحة الكون صورتها يد الخالق المبدعة ورسمتها الريشة الإلهية القديرة تصويراً جمالياً معجزاً ينطوى على كل وسائل الإبداع والجمال، من حركة وإيقاع وتناسق وألوان وظلال ووحده واتزان وتنوع ما بين اللمسات العريضة والومضات الدقيقة وما بين الإجمال والتفصيل.

فهاهى قدرة الخالق عز وجل تفصل بين السماء والأرض وتبدو السماء ممتدة بلونها الأزرق، وفى لمسات عريضة ومساحات شاسعة تبدو الأرض منبسطة بلونها الأخضر تتوسطها الجبال الشاهقة فى كتل ضخمة بلونها الأصفر بينما ترتسم فى مساحات

أخرى وسط اللوحة البحار والأنهار بما صورته قدرة الخالق من مخلوقات وكائنات بحرية بمختلف أشكالها وألوانها وحركاتها فى شتى الاتجاهات _ تكسر الهدوء البادى على اللوحة وتبعث فيها الحياة والحركة، ويجمل المشهد ويكمله سطوع الشمس بنورها الساطع وأشعتها الذهبية التى تنشرها على الكون .. ويمر الزمن ساعة بعد ساعة ويحين وقت الغروب فيولج الله النهار فى الليل الذى يغشى الكون وينشر ظلامه فإذا بالقمر ينير السماء وتنتشر النجوم كاللآلئ على صدر الكون.. ما أجملها من مشاهد، وما أبلغه من تصوير يدغدغ الحواس ويهز الوجدان ويبعث المسرة والمتعة فى النفس.

وترسم يد القدرة الإلهية لوحة أخرى متتابعة المشاهد تصور خلق الكون تصويراً جمالياً بديعاً ومبدعاً.

﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾[1]

فخلق الله الأرض فى يومين، وجعل فيها جبالاً ثابتة شوامخ، وأكثر خيرها من ماء وزرع وضرع، وأنهار وأشجار ودواب، ففيها أرزاق الناس ومعاشهم، كل ذلك فى أربعة أيام كاملة لا زيادة فيها ولا نقصان، وعمد إلى خلق السماء وتسويتها وهى بهيئة الدخان، وزينها بالنجوم، ثم أمر السماء والأرض بالاستجابة لأمره فاستجابا له طائعين.

إنها مشاهد متوالية ومتتابعة تهز النفس وتلذ الحواس وتلهب الخيال وتسر الوجدان فيا له من تصوير ربانى جميل ويا له من تعبير إلهى مبدع، ويا له من جمال سبحانى أخاذ.

ويختتم الكاتب هذه الإشارات إلى التصوير الجمالى المبدع والمعجز لخلق الكون

(١) سورة فصلت: آية ٩ ـ ١٠ ـ ١١ ـ ١٢ .

باليد الربانية القادرة ومشيئته الحكيمة بهذه الإشارة الإلهية للوحة إعادة الخلق حيث يقول الله تعالى:

﴿ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾(١)

فيوم يطوى الله السماء طياً كما تطوى الورقة فى الكتاب، أو كما تطوى الصحيفة على ما كتب فيها، وكما بدأ الله الخلق يعيده مرة أخرى، ويحشر الناس حفاة عراة على الصورة التى بدأ الله خلقهم فيها، ولعل ، هذا التعبير فى هذه الآية يذكرنا بما سبق الإشارة إليه مما أطلقنا عليه التصوير بالتقصير، والتكثيف فى زمن الحدث دون استعراض أية تفاصيل أو مراحل فهذا الكون بما عليه من ظواهر ومخلوقات والذى خلقه الله سبحانه وتعالى فى ستة أيام ثم أستوى على العرش ... تأتى لحظة حاسمة يعلمها الله بمشيئته وإرادته فيطوى فيها صحيفة الكون كله وتنتهى الحياة من الوجود بهذه السرعة الفائقة التى تطوى بها صحيفة الكتاب على كل ما فيها من حروف وكلمات ومعلومات وأخبار ... ثم يعيد الله الخلق مرة أخرى كما خلقه أول مرة.

سبحان الله الخالق البارىء المصور ... القادر العليم، المبدع البديع.

القرآن ... والجمال فى مشاهد الطبيعة

الإسلام هو دين التربية الشاملة المتكاملة للإنسان حساً وجسداً، وعقلاً ونفساً، وروحاً ووجداناً، وهو فى ذلك يخاطب الإنسان خطاباً متعدداً من زوايا شتى تنبه الحس وتوقظ الشعور، وتفتح البصيرة، وتهز الوجدان إلى حقيقة هذا الوجود، فتارة يوجه القلب البشرى إلى آيات الله فى صفحة الكون، وتارة يوجهه إلى علم الله الشامل الواسع، وتارة يوجهه إلى عظمة الله وقدرته فى خلق هذا الكون وفق نظامه المحكم وناموسه الدقيق.

على أن هذه الآيات الكونية التى تحيط بالنفس البشرية فى كل الأنحاء قد لا يلتفت إليها الإنسان لطول الألفة والعادة. فجاء القرآن الكريم حافلاً بهذه الدعوة للإنسان أن يفتح بصيرته على آيات الكون البديعة والمعجزة والمذهلة، حتى يدرك من ورائها يد

(١) سورة الأنبياء: آية ١٠٤ .

القدرة الخلاقة المبدعة من جهة، ويستشعر ما تنطوى عليه من مظاهر الجمال الأخاذ الذى يلذ الحواس ويمتع الروح والوجدان من جهة أخرى، ومن ثم تتوجه النفس إلى المزيد والمزيد من التسبيح بحمد الخالق وشكره.

«والقرآن يوجه النفس إلى جمال السماء وإلى جمال الكون كله، لأن إدراك جمال الوجود هو أقرب وأصدق وسيلة لإدراك جمال خالق الوجود، وهذا الإدراك هو الذى يرفع الإنسان إلى أعلى أفق يمكن أن يبلغه، لأنه حينئذ يصل إلى النقطة التى يتهيأ فيها للحياة الخالدة فى عالم طليق جميل برئ من شوائب العالم الأرضى والحياة الأرضية، وأن أسعد لحظات القلب البشرى لهى اللحظات التى يتقبل فيها جمال الإبداع الإلهى فى الكون، تلك هى اللحظة التى تهيؤه وتمهد له ليتصل بالجمال الإلهى ذاته ويتملاه»(١)

فالجمال يتبدى فى كل كائنات الكون وظواهره ومشاهده. وحين يتفتح حس الإنسان لهذا الجمال وتلتقى نفسه به وتشف وتصفو ـ حينئذ تلتقى النفس البشرية بالحقيقة الإلهية لهذا الموجود.

وجمال الطبيعة من أروع ألوان الجمال التى تهش له النفس بفطرتها وتلتقى روحها بروحه عندما ينفذ شعاعه إلى منافذه المختلفة ومساربه الخفية، ويحدث أثره فى كيانها البشرى. والنفس الإنسانية تعيش فى القرآن مع الكون فى لقاء دائم جميل حبيب، لقاء يلذ النفس ويمتع الحس ويطلق الروح.

«إن أسلوبه الساحر، وجوه المشرق، وروحه الصافية، لتنقل الإنسان نقلاً من إلفه وعاداته وتهزه ليستيقظ، تلمس برفق أعصابه المكشوفة، فتعطيه الشحنة كاملة ينقلها إلى مركز الحس بكامل تدفقها، ومن ثم يعيش الأشياء كأنها تحدث لأول مرة ويستمتع بسحر هذه الجدة ومتاعها العجيب»(٢)

والطبيعة هى المعلم الأول للإنسان، فمن خلال التقائه بها تتفتح حواسه وتستيقظ مشاعره وتنشط بصيرته وتنمو مداركه وتتضاعف خبراته وأفكاره ومفاهيمه.

---

(١) سيد قطب: **فى ظلال القرآن** : ج٢٢ ، ص ١٤.

(٢) محمد قطب: **منهج الفن الإسلامى**، ص ٢١٤ .

وفى ضوء الظروف الطبيعية والمناخية تنمو وتتدرب الحواس الإنسانية على استقبال ما تطرحه الطبيعة من طاقات متباينة فى صورتها وطبيعتها: حجوم وأشكال وأضواء وظلال وملامس ناعمة وخشنة، وألوان باهته وصارخة تتفجر وتتشكل على هيئات الموجودات والمخلوقات من أحياء وجمادات متحركة أو ثابتة أو مترددة بين السكون والحركة. هذه الطاقات يدركها الإنسان فى بادئ الأمر بحواسه المختلفة ليألف بعضها، وينفر من بعضها ويجرى حواراً معها فى محاوله للفهم والاستيعاب والاختيار.

«وتلك التغيرات التى يستقبلها بالحواس والتى ينمو عقله خلال التحاور معها تنتهى به لحالات من الإحساس بالرضا والإحباط ومن الاطمئنان والخوف ومن الميل والنفور، وكلها حالات وجدانية لها تأثيرها الحاسم على نمو وتأصيل وتدعيم المعانى وعلى تحديد اتجاهات الميل والتفضيل والاستمتاع، ومن تلك الزاوية تصبح طاقات الطبيعة ومظاهرها المتغيرة عوامل أساسية للنمو الحسى والعقلى والوجدانى وهى عوامل مؤثرة فيما يتسرب بداخل عقله ونفسه.. من خبرات وميول تمتزج معاً بطريقة لا شعورية لتصطبغ بها رؤيته للجمال» (١)

« وقد شاء الله جلت قدرته أن تكون الطبيعة هى الجامعة الكبرى التى تخرج أفواج العلماء والفنانين فى الوقت ذاته : العلماء الذين يتفحصون ويجربون ويكتشفون من أجل رقى العلم الانسانى وإدراك السنن والنواميس الطبيعية التى يقام عليها صرح العلوم التطبيقية المختلفة ... والفنانين الذين يعاينون ويلمسون وينظرون ويسمعون فتهزهم المعاينة والنظر والسماع وتحيلهم إلى قلوب تنبض عشقاً وهياماً وشعراً، وعقول تند عن مرائيها النفعية المادية القريبة فتحطم الجدران وتنطلق إلى ما وراء الأشياء، وحدث ينقل الأحاسيس من مراتبها الأولى إلى أجهزة فذة عجيبة للتفاعل مع ما فى الكون من قيم وحقائق وأشكال غابت عن الأسماع والعيون أول مرة فجاء (العيان الفنى) لكى يمزق عنها الأستار ويعيد إليها صفاءها الأول»(٢)

وفى المنظور الإسلامى تتضمن الطبيعة قوى روحية ذات مستويات مختلفة إلى

---

(١) إيهاب بسمارك: **الأسس الجمالية والإنشائية للتصميم**، ص ١٥ .

(٢) عماد الدين خليل : **شئ عن الموقف الجمالى فى الإسلام**، مجلة العربى، العدد ٢٣٨ ، سنة ١٩٧٨ .

جانب القوى المادية المحسوسة، حيث كل الأشياء لها قيمتها وقدرتها على التعبير الروحى، وأن كل المخلوقات لها جمالها الذى يميزها والذى يفصح عن القوى الإلهية التى تعمل فيها والذى يبين عن القدرة الإبداعية في خلقها. كما أن مظاهر التعبير والحركة والنمو وعدم الثبات على حال، هى أيضاً مظاهر لجمال الطبيعة لأنها تدل على القدرة الإلهية التى أبدعتها والتى من أهم صفاتها الثبات والبقاء والخلود والأبدية والسرمدية.

ولنا أن نلمس بعضاً من مواضع التصوير القرآنى للجمال فى مشاهد الطبيعة الكونية. وهنا يرى الكاتب ضرورة التوقف قليلاً مع القارئ الكريم لتحديد بعض المنطلقات التى يبدأ منها هذه الخطوة.

أولاً : تتعدد مظاهر الجمال فى الطبيعة، وبالتالى يحتشد القرآن الكريم فى كثير من آياته بمظاهر التعبير الجمالى والتصوير الفنى لمشاهد الطبيعة وذلك إلى الحد الذى لا تتسع معه الرقعة المتواضعة لهذا الكتاب، حيث يحتاج الحديث عن جميع هذه الصور إلى أكثر من كتاب، الأمر الذى يحتم ضرورة الاكتفاء بالإشارة إلى نماذج مختارة من هذه المشاهد ليس على سبيل الإحصاء والحصر، وإنما على سبيل التمثيل بقليل من كثير.

ثانياً : قد يتناثر الموضوع الجمالى فى العديد من المواضع حيث يرد فيها كومضات خاطفة فى سياق موضوعات مختلفة ومتنوعة. وحيث أن ما يهمنا هو وحدة الموضوع الجمالى فقد اتبع الكاتب أسلوب تجميع المشهد الطبيعى موضوع التعبير الجمالى من عدة آيات أوعدة سور من سور القرآن بصرف النظر عن ترتيبها أو وحدة موضوعها واتصالها بعضها بالبعض وذلك انطلاقاً من الحرص على وحدة المشهد التصويرى واكتمال الصورة الجمالية المعبرة رغم اختلاف الزمان والمكان والموضع والمقصد.

ثالثاً : يقتضى منطق البحث العلمى أن يحدد الكاتب المنهج البحثى الذى سوف يستخدمه فى تناول الصورة الجمالية فى التصور القرآنى لمشاهد الطبيعة بالتحليل، وفى ذلك يشير الكاتب إلى أنه فى محاولة التحليل الفنى والجمالى لهذه المشاهد سوف يتم التركيز على جانبين هامين هما :-

الجانب الأول: جماليات التصوير التشكيلى:

١- العناصر الفنية التشكيلية:

وتلك هى عناصر التشكيل الفنى والجمال التى يتألف منها المشهد الطبيعى والتى يكمن فيها جماله، والتى يمكن تحديدها فيما يلى :-

- **الهيئات الطبيعية:** بما تتضمنه من أشكال وحجوم ومساحات وبما يميزها ويحكمها من عناصر التشكيل الفنى من علاقات خطية وملمسية، وعلاقات لونية من تدرج وتوافق وانسجام أو تباين وتضاد وتنافر، وعلاقات الأضواء والظلال بتوزيعاتها وانحسارها وانتشارها، وكذا عنصر الفراغ التشكيلى النافذ وغير النافذ والمحيط وعلاقة هذا الفراغ السلبى بالأشكال الموجبة حوله، كذلك عنصر الحركة الفعلية والإيهامية المنتظمة وغير المنتظمة للأشكال والهيئات وما تحدثه من أثر جمالى نتيجة هذه الحركة وتنويعاتها وإيقاعاتها، بالإضافة إلى الأسس البنائية الإنشائية للأشكال والعناصر الطبيعية وما يحكمها من قوانين تركيبية متنوعة كالتماثل والتبادل والتشابه، والنظم المحورية والإشعاعية والحلزونية وغيرها من النظم البنائية.
- **التكوين الفنى:** ويقصد به ذلك القالب الفنى التى تصاغ فيه هذه الهيئات والعناصر الطبيعية التى يتألف منها المشهد صياغة فنية تشكيلية جمالية من خلال عمليات التوزيع والترتيب والتجاور والتراكب والتماس، ومن خلال العلاقات الجمالية لعناصر التشكيل، وما تحدثه هذه الصياغات - بما تتضمنه من علاقات وعمليات - من أثر جمالى فى النفس.

٢- القيم الجمالية:-

وهى ما يطلق عليها الأسس الجمالية فى الفن والطبيعة التى تتحدد بأربع خصائص هى (الوحدة _ الاتزان _ والإيقاع _ والتناسب) تلك المصطلحات التى تشير إلى الخصائص الجوهرية والعامة التى أدركها الإنسان منذ بداية وجوده على الأرض فى ذاته وفى طبائع الكيانات المتنوعة المحيطة فى الطبيعة.

«فقد أدرك الإنسان أن الوحدة العضوية فى تلك الكائنات قانوناً عاماً، وأدرك أن

التوازن حالة أساسية وضرورة فى نفس الوقت، واستشعر التغيرات التى تحدث داخل ذاته وواجهته الطبيعة بما فيها من مظاهر وكيفيات للتغير، فأحس أن لكل شىء إيقاعاً يميزه ونسباً تحكم تكوينه، وأصبحت تلك الخبرات مخزوناً لا شعورياً داخل نفسه وتحول إحساسه الفطرى نحو قوانين الطبيعة إلى قيم أساسية توجه إحساسه الجمالى تجاه الأشياء»(١)

وتلك الخصائص والقيم الأساسية هى بمثابة المعايير التى يمكن أن نقيس بها القيمة الجمالية لموضوع الإدراك الجمالى سواء كان فناً أو طبيعة، وهذه القيم يجب أن ننظر إليها نظرة كلية تكاملية باعتبار أن هذه القيم متداخلة ومترابطة متبادلة ومتفاعلة تعمل معاً فى الموضوع الجمالى دون انفصال.

وهذا الجانب الأول من منهجنا فى التحليل الجمالى لمشاهد الطبيعة والذى يتعلق بجماليات التصوير التشكيلى فى النص القرآنى، هو ما يمكن للمؤلف أن يدلى فيه بدلوه _ إدلاء متواضعاً _ بحكم طبيعة تخصصه فى مجال الفن التشكيلى وجماليات فنون الشكل، وذلك فى حدود ما تسمح به رقعة هذا الكتاب.

الجانب الثانى: جماليات التعبير اللغوى فى النص:

ويقصد بها الصياغة اللغوية للصور الجمالية فى الطبيعة، والتى يعبر بها النص القرآنى عن المشهد موضوع الإدراك الجمالى وذلك باستخدام أدوات التعبير اللغوى وهى ألفاظ اللغة العربية ومفردات أبجديتها، وطرق الصياغة اللغوية من ترتيب الحروف وتركيب الكلمات وتأليف الجمل، وما يحمله النص القرآنى كذلك من جماليات التعبير اللغوى ومحسناته البلاغية،وما يتضمنه من تشبيهات واستعارات وكنايات ومقابلات لفظية وسجوع وغيرها من فنون البيان والبديع.

وهذا الجانب الذى يتعلق بجماليات التعبير اللغوى عن المشهد الطبيعى فى النص القرآنى، إنما يتعدى اختصاص المؤلف حيث أن لهذا المجال متخصصون من أساتذة اللغة العربية والبلاغيين الذين هم أقدر من يتصدى للخوض فى هذا الموضوع، ذلك ما جعل المؤلف يتوخى الحرص والحذر، فهو عندما يتعرض إلى هذا الجانب فى التحليل

(١) إيهاب بسمارك: المرجع السابق، ص ١٥١ .

الجمالى للمشاهد إذ يفعل ذلك بقدر كبير من الاستحياء بما يمس الموضوع مساً خفيفاً لا يخرج عن انطباع جمالى تذوقى عام لا يرقى إلى اقتدار المتخصص.

الموضوع الجمالى الأول: (الظلام والنور والضوء والظلال)

«فى الليل كل البقرات سوداء . هذا ما قاله الفيلسوف الألمانى (هيجل)، فلولا ضياء النهار لما كان باستطاعة الإنسان أن يميز بين الأشياء ولانعدمت تموجات الظلال وشاعريه الأشعة الناعمة عند بزوغ فجر باسم وغروب شمس شاردة.

إن أول من وجه الانتباه إلى حقيقة العلاقة بين الضوء والأجسام المرئية هو عالم الفلك والبصريات العربى المسلم أبو على الحسن بن الهيثم، حيث أكد أن الشىء لا يضئ بذاتة بل بإشراف نور عليه، والإبصار لا يتم إلا بتلقى العين للأشعة المنعكسة عن الأشياء المضاءة» (١)

وعلى لوحة الكون البديع يلعب الضوء دوراً بارزاً فى رسم الكثير من المشاهد الجمالية وذلك من خلال تغير مساراته وحركته على ساحة الكون وصفحة السماء على مدار الزمن ومرور الوقت محدثاً حالات متقابلة من الظلمة الحالكة إلى النور المتوهج ومن الليل الدامس إلى النهار الوضاء، ومتدرجة ما بين هذا وذاك. منتشراً على السطوح فيغمرها ويذيب مادتها، أو ساقطاً على الأجسام والهيئات أو نافذاً خلالها منشئا ظلالها الساقطة أو المحصورة.

ويتجلى جمال التصوير القرآنى لحالات حركة الضوء على لوحة الكون البديعة فى تلك المقابلة التشكيلية المبنية على التباين الجمالى بين الأبيض والأسود عندما يقابل القرآن الكريم بين الظلام والنور.

وها هو ما ترسمه الآيات القرآنية عن الظلمة، فتقول فى وصف حالة الكآبة والظلام النفسى التى يورثها الكفر فى نفوس الكافرين ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ

(١) أحمد رأفت : **الرسم بالألوان فى القرآن**، دار الجميل، ١٩٩٦، ص ٩٧ .

مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴾(١)

فعلى صفحة الصحراء المنبسطة المتمددة على مدى البصر ..وفى وقت الظهيرة فى منتصف النهار .. وفى شدة الحر والشمس المحرقة يسقط شعاع الشمس على الأرض، وبعملية فيزيائية على شبكة العين يحدث هذا الأثر الخداعى للإدراك البصرى بادياً للعيان وكأنه يرى ماء جارياً ينساب ويفترش الأرض، هذا الماء الذى يسيل له لعاب الظمآن من شدة العطش، حتى إذا ما اقترب منه فلم يجد شيئا، فلقد تبدد السراب، وظل الظمآن على ظمئه.

هذا هو حال الذين كفروا، وهكذا يرون أعمالهم، حيث يتوهمون أن أعمالهم ستنفعهم فى الآخرة عند لقاء ربهم، ولكنهم يكتشفون أن هذا سراب وأن مآلهم لله عز وجل الذى يجازيهم على أعمالهم.

ولعل الحس البشرى لينفعل ويهتز الوجدان من هول المفاجأة فى الحالين، حال اكتشاف الظمآن الذى يلهث لما يجرى وراءه من سراب، وعلى الجانب المقابل بالنسبة للكافر الذى لم يجد شيئا بعد طول مشوار الحياة، ثم (وجد الله عنده فوفاه حسابه).

وتدب الحياة والحركة فى هذه اللوحة _ التى تبدو ساكنة _ حيث يتلألأ ذلك الشعاع الفضى الساقط على موجات الكثبان الرملية بانحناءاتها الخفيفة التى ينكسر عليها الضوء فتبدو للعين فى حركة إيهامية وكأنها موجات مائية، تترقرق فى انسيابها على صفحة المجرى المائى، وتنعكس عليها صورة المرئيات مقلوبة كما يحدث فى الواقع. وعلى الجانب الآخر وفى مقابلة مدهشة ترسم يد الله بريشته الإلهية هذه اللوحة البديعة فى مشهد (الظلمة) بصورة تشبيهيه بليغة فى قوله تعالى: (كظلمات فى بحر لجى....).

تصور اللوحة العواصف العاتية التى تهب على البحار العميقة أو المحيطات فى ليلة شديدة الإظلام حيث ترتفع الأمواج الشديدة بأطوالها وارتفاعاتها وسعاتها، فى حركة متلاطمة هائجة، تنطلق فى طبقات متراكبة، يتراكم بعضها فوق البعض، وتثير

(١) سورة النور : آية ٣٩ ، ٤٠ .

العواصف الشديدة سحباً ركامية هائلة تحجب ضوء الشمس فيخيم على الجو الظلام والاعتام الذى يحول بين الإنسان وبين رؤية يده، حيث تنعدم الرؤية فى هذا الجو المظلم إنها صورة عجيبة مذهله تهز النفس وتحرك الشعور والوجدان لجمال المشهد وجلال القدرة الإلهية فى الخلق وفى التصوير.

وفى مشهد (الظلمة) تطالعنا هذه اللوحة البديعة فى قوله تعالى: ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾(١)

هؤلاء الكفار الذين استبدلوا الكفر بالإيمان والغى بالرشاد، ودفعوا الهدى ثمناً للضلالة فخسروا هذه الصفقة، فقد شبههم الله تعالى بمن أشعل ناراً ليستدفئ بها ويستضئ فما كادت تشتعل حتى انطفأت وخبى نورها فتركته فى ظلام دامس وخوف ورعب شديدين لا يبصر ما حوله من هول الظلمة وفقد الكفار وعيهم وحواسهم من بصر وسمع ونطق وتركهم يتخبطون من الخوف والهلع فى ذلك الجو المظلم الموحش.

وزاد الله فى حيرتهم وترددهم، مثلهم كمثل قوم نزل عليهم من السماء مطر شديد مصحوباً بالبرق الخاطف والرعد القاصف، والصواعق العاتية، والظلمات الداجية، مما يجعلهم يضعون أطراف أصابعهم فى آذانهم لاتقاء أخطارها المدمرة المميته.

وهذا البرق الذى يكاد يخطف أبصارهم من شدة ضوئه ولمعانه يضئ لهم الطريق فى نفس الوقت فيسيرون على هديه فإذا ما انطفأت نارهم توقفوا عن المسير وثبتوا فى أماكنهم خشية الانكفاء والسقوط.

وفى هذه اللوحه الحية التى تموج بالحركة والصخب والإيقاع المتهادى مرة

---

(١) سورة البقرة: آية ١٦ : ٢٠ .

والمتصاعد مرات والانتقال بين الظلمة والضوء الخافت والنور الساطع تصوير عجيب لأعماق النفس الإنسانية بكل ما يعتمل فيها من مشاعر الرعب والخوف والفزع والحيرة والقلق والتشبث بالحياة والتعلق بالأمل فى النجاة.

إنها حقاً صورة رائعة حية نابضة يتلقفها الحس ويدركها الخيال وتتفاعل معها النفس لما فيها من آيات الجمال.

وفى مقابلة جمالية مدهشة بين الظلام والنور ترتسم هذه اللوحة المبدعة عن النور الربانى :

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾(١)

استخدم القرآن مشاهد الطبيعة المحيطة بالإنسان والمدركة بحسه وجوارحه فى مجال التنزيه المطلق والتجريد الكامل وذلك لكى يقرب معنى النور كصفة من صفات الذات الإلهية المنزهة عن كل تشبيه ـ إلى إدراك الإنسان المحدود، وخياله القاصر، هذا النور الإلهى والإشعاع الربانى المطلق وغير المحدود واللامتناهى ـ سواء على المستوى الحسى أو المعنوى ـ هو نور الله فى الكون : بسمائه فى نورها المادى بالشمس والقمر والكواكب والنجوم، وبأرضه فى نورها المعنوى بالحق وبالإيمان والخير والعدل والعلم والهدى والأخلاق والفضائل وبكل دلائل العظمة والقدرة فى خلق الله، هو نور الله المطلق فى كل وقت لا يعرف ليلاً ولا نهارا ولا سماء ولا أرضاً، نور الله فى ذاته فى رسله وفى كتابه، وهو كذلك نور ربانى يشع ويتلألأ فى صدر المؤمن وقلبه مثل مشكاة(*) فيها مصباح مضىء داخل زجاجه شفافة ويتلألأ نور هذا المصباح

---

(١) سورة النور : آية ٣٥ .

(*) المشكاة ما يوضع فيه القنديل أو المصباح(المعجم الوجيز) وهو إناء زجاجى شفاف وعميق كان يستخدم فى البيوت والمساجد، ويوجد نماذج من التراث الإسلامى يعرفها الأثريون ومؤرخو الفن، ومازالت منه نماذج ببعض المساجد القديمة الآن.

ويتضاعف ويتعاظم نتيجة نفاذ الضوء وانكساره عبر الأسطح الزجاجية المتتالية (سطح الزجاجة وسطح المشكاة) عدة مرات وفى مختلف الاتجاهات فيزداد تألقاً وضياء، وخاصة أن هذا القنديل يضاء بزيت خاص يمتاز بصفائه ونقائه مما يسبب شدة إضاءته، فهو مأخوذ من شجرة زيتون مباركة ـ تتربع فى وسط الصحراء ولتنشر ضوءها فى شتى الاتجاهات فتغمرها نوراً.

ويتضاعف النور ويتراكب نور على نور، حيث يجتمع نور السراج، وحسن الزجاج، وصفاء الزيت، ليكون نور الله الذى يهدى به من يشاء.

أى جمال أخاذ فى هذا التصوير الإلهى البليغ وأى حس يدرك هذا الجمال وأى خيال يتمثله...

وبين مناطق الظلمة والنور تتكون الظلال وتنتشر على صفحة الأرض فى امتداد وانكماش، فى تفرق وتجمع على السطوح والأجسام وفيما بينها. ويرسم القرآن الكريم صوراً شتى للظلال فى لوحة الكون :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً (٤٥) ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴾(١)

من الثابت علمياً أن الظل يتكون نتيجة انكسار أشعة الضوء على الأجسام وهذا ما يحدث عند سقوط أشعة الشمس، حيث يكون الظل نعمة لبنى الإنسان ليستظل تحت مساحاته الممدودة على الأرض وتتراوح نفسه به من حرارة الشمس ولهيبها الحارق، فلولا الظل لأحرقت الشمس الإنسان وكدرت حياته، ولم يجعل الله الظل ساكناً فلو شاء ذلك لفعل ولكن لأن النعمة للإنسان فى حركة الظل كذلك فجعله الله متحركاً بفعل تأثير الشمس، وحركة الأرض حول نفسها ومدارها حول الشمس فتتحرك الظلال وتنتقل من مكان لأخر حيث تختفى هنا وتظهر هناك.

وفى هذه اللوحة، لا تتجلى الألوان أو الأضواء أو الأشكال فحسب باعتبارها عناصر التشكيل الفنى، ولكن يتجلى هنا عنصر فنى آخر هو عنصر الحركة، الحركة المباشرة أو غير المباشرة للظل من أعلى إلى أسفل. والحركة فى هذه اللوحة حثيثة بطيئة، هينة

(١) سورة الفرقان: آية ٤٥ ـ ٤٦.

رقيقة، تلك هى حركة الظل حين يسقط على الأرض منذ تكوينه مصاحباً للأشياء وعند طلوع الشمس، متنقلا فى أشكاله من هيئة إلى أخرى ومن حالة إلى حالة يتدرج ما بين الانبساط والامتداد إلى التناقص تدريجيا حتى التلاشى. ثم تعود هذه الحركة ـ المتخيلة ـ لتتكرر مرة أخرى فى الاتجاه العكس من أسفل إلى أعلى بنفس هدوئها عندما تحين إرادة الله ومشيئته فى قبض هذه الظلال بنفس الهدوء ونفس اليسر ونفس التدرج، حتى لا يشعر الإنسان بهزة العودة الفجائية للظل ـ إن حدثت ـ وما تحدثه من آثار سلبية على الإنسان بدناً ونفساً.

وهنا تصوير من نوع آخر للحركة الإلهية حين تقبض يد الله القادرة المحركة للكون على هذا الظل ليسترده فى لطف وهدوء ويسر ويرده إلى ذاته العلية القديرة.

وترسم الريشة الإلهية فى تصوير ربانى أخاذ لوحة أخرى للظل والظلال حيث تقول الآيات :-

﴿ انطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلاثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لا ظَلِيلٍ وَلا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ ﴾(١)

﴿ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لا بَارِدٍ وَلا كَرِيمٍ ﴾(٢)

فى اللوحة الأولى يقول تعالى للكافرين يوم الفصل سيروا إلى نار جهنم التى كنتم بها تكذبون ... إنها نار شديدة محرقة يتصاعد منها دخان عظيم وكثيف، يتكاثف فوق بعضه ويتراكب فى طبقات سميكة متعددة لدرجة إنها تلقى تحتها ظلالاً تعلو رؤوس هؤلاء الكافرين. ولكن هيهات بين هذه الظلال والظلال الممدودة المنبسطة الهادئة والمريحة التى يستظل بها المؤمنون تحت منشآت وموجودات مستقرة وثابتة وآمنة فى حين أن هذه الظلال التى توعد بها الله الكافرين ظلال واهمة لا تظل من حر ذلك اليوم ولا تقى من اللهب شيئاً. وسرعان ما تختفى هذه الظلال عندما تتفرق سحب الدخان الكثيف إلى ثلاث شعب ثم تتلاشى.

---

(١) سورة المرسلات: آية ٣٠ ، ٣١ .

(٢) سورة الواقعة: آية ٤١ـ ٤٤ .

ويلتقى هذا التصوير للظلال التى يستظل بها الكفار والمنافقون مع ذلك التصوير فى اللوحة الثانية :

﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ (٤٣) لا بَارِدٍ وَلا كَرِيمٍ﴾ حيث يبين الله تعالى أحوال أصحاب الشمال بهذه الصيغة الاستفهامية ليعظم من التهويل والتفظيع والتعجب من حالهم حيث هم فى ريح حارة آتية من النار تنفذ من شدتها فى مسامهم، وفى ظل تحت دخان كثيف شديد السواد، وهذا الظل ليس بارداً يستروح به الإنسان من شدة الحر، ولا هو دخان حسن المنظر يكرّم به ويسر كل من يستفىء بظله.

الموضوع الجمالى الثانى: (البحر والموج والفلك والريح)

﴿هُوَ الَّذي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾(١)

يتجلى جمال التصوير الفنى فى هذا المشهد الدرامى الذى تتعانق فيه حركات العناصر من أحياء وجوامد مع ما يجيش فى النفوس من خلجات ومشاعر بشكل متداخل ومتشابك تعلو إيقاعاته وتهبط مع تصاعد الموقف واشتداد الأزمة ثم هدوء الأحداث وسكونها.

فها هو البحر بأمواجه المنسابة فى هدوء وها هى الفلك تجرى بفعل الريح الطيبة، حاملة عليها الرجال ونفوسهم راضية هادئة فرحة مستبشرة سعيدة بهذه الرحلة. وفى جو درامى مفاجىء يتغير كل شىء وينقلب المشهد إذ تهب ريح عاصفة شديدة ويضطرب البحر ويهيج الموج ويعلو ويتصاعد ضجيجه ... وهنا تتبدد فرحة الرجال وترتجف أوصالهم ويرتسم الذعر على وجوههم وتعلو دقات قلوبهم وتختلط أصواتها مع صيحاتهم وصرخاتهم المتعالية، ويتصاعد الإيقاع فى الحركة ويسود الهرج والمرج ... وتتحشرج الحناجر بأصوات الدعاء والابتهال حتى يأتى فرج الله وتحل رحمته ويعم لطفه وينجو الجميع من الموت المحقق ويعود البحر مرة أخرى للهدوء وتتفرج الأزمة.

---

(١) سورة يونس : آية ٢٢ .

﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾(١)

لوحة تشكيلية مصورة أخرى ومشهد جمالى فى هذا النص القرآنى، - وان كنا نتمثلها لا بحرفية نص الآية بل بما يستدعيه الخيال من تفاصيل على الصورة _ فهذا البحر الهائج المتلاطم الأمواج، قد سخره الله للناس وذلله لهم، فها هو ينساب فى هدوء - وها هى مراكب الصيادين يعتليها الصيادون ناشرين شباكهم ثم يسحبونها مرة أخرى مملوءة بالخيرات من أنواع الأسماك باختلاف أشكالها وألوانها، وعلى مسافة منهم ينتشر رجال آخرون يستخرجون صنوف اللآلىء والجواهر والأصداف ... وتكتظ السفينتان بما عليهما من رجال يمارسون عملهم فى همة ونشاط وفرح وسرور مستبشرين آملين فى رزقهم المنتظر .. تعلو أصواتهم وتتعدد حركات أجسادهم فى إيقاعات فنية بديعة ... بينما تجرى سفن أخرى تمخر البحر بقوة بصدورها المسنمة وتشقه جارية فيه مقبلة وأخرى مدبرة، فى حركة ونشاط وحياة.

الموضوع الجمالى الثالث: (البرق والرعد والصواعق والأعاصير)

قال تعالى :

﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾(٢)

ويقول تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ ﴾(٣)

---

(١) سورة النحل : آية ١٤ .
(٢) سورة البقرة : آية ٢٦٦ .
(٣) سورة النور: آية ٤٣ .

ويقول تعالى:

﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾(١)

ويقول تعالى :

﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لاَّ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلاَلُ الْبَعِيدُ﴾(٢)

هذه آيات أربع ـ وغيرها الكثير ـ من الآيات المحكمات فى القرآن المبين التى تصور البرق والرعد والصواعق والأعاصير كظواهر كونية مسيرة بقدرة الخالق الأعظم، صورتها الكلمات فى بلاغة معبرة وجمال أخاذ تستشعره النفس ويرتسمه الخيال ويؤخذ به اللب وينفعل له الوجدان.

فى الآية الأولى تصوير جمالى أخاذ للحديقة الغناء تزينها أشجار النخيل والفاكهة من كل صنف ولون، وتنساب المياه فى مجاريها من الأنهار تحتها. ثم لظروف ضعف صاحبها وكبر سنه مع عدم قدرته هو وأبنائه الضعاف على العمل. تجف هذه الحديقة،.. ثم تستكمل الصورة بمرحلة تالية حيث تهب عليها الأعاصير والرياح الشديدة مصحوبة بالأتربة والرعد والبرق وتشتعل النيران وتتصاعد الأدخنة الكثيفة لتحجب الرؤية، ويتولد الشرر وتشتعل الحريق، وتأكل النيران العاتية كل ما فى البستان من خير وجمال وتأتى على كل ما فيها، بينما صاحبه وذريته أحوج ما يكون إليه.

وفى الآية الثانية : تصوير جليل وجميل للوحة السماء والسحاب والمطر، رسمتها الريشة الإلهية حية متحركة، ملونة ومظللة، مضيئة ومشعة، محسة ومجسمة ... يزجى الله السحاب ويسوقه بقدرته إلى حيث يشاء، يجمعه بعد تفرقه، يتكاثف ويتراكم فوق بعضه البعض، ويخرج المطر من بين السحاب الكثيف الضارب إلى السواد، الثقيل كالجبال، يصيب المطر من يشاء من العباد، فيخضر الزرع ويثمر الثمر إذا كان المطر خفيفاً، ويضر الزرع والثمر إذا انهمر فى سيول مدمرة، فسبحان من جعل السماء منشأ للخير والشر... ثم يلمع البرق فى عنان السماء يكاد يخطف الأنظار من شدة ضوئه.

---

(١) سورة البقرة : آية ١٩ .

(٢) سورة إبراهيم : آية ١٨ .

وفى الآية الثالثة : تصوير أعداء الله وهم فى حيرتهم وترددهم كمثل قوم أصابهم مطر شديد أظلمت له الأرض وأرعدت له السماء رعداً قاصفاً وأبرقت برقاً خاطفا، ظلمات داجية وصواعق عاتية تجعلهم يضعون أصابهم فى آذانهم ليسدوها حتى لا تسمع هذه الأصوات المدوية، وحتى يدفعون عنهم خطر الصواعق، وهم فى غاية الدهشة والفزع والرعب.

أما فى الآية الرابعة فتصوير لأعمال الكفار فى الدنيا مثل رماد عصفت به الريح الشديدة فى يوم شديد هبوب الريح، فهذه الأعمال يمحقها الله كما تمحق الريح العاصفة الرماد، فهم لا يحصلون على ثواب ما عملوا كما لا يستطيع الإنسان أن يحصل على شىء من الرماد الذى طيرته الريح.

الموضوع الجمالى الرابع : (حركة الحياة على الأرض)

آيات الله فى الكون تصور عظمة قدرته تصويراً يهز الوجدان ويمتع الحس فى هذه اللوحة الجامعة لمظاهر هذه القدرة فى الخلق...

١ ـ ﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٩٥) فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٩٦) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٩٧) وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ (٩٨) وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾(١)

إنه حشد هائل من الأنشطة والأوجه الحياتية، إنها الحياة الكاملة بكل ما فيها فى

(١) سورة الأنعام : آية ٩٥ ـ ٩٩ .

الأرض والسماء. إنها حركة الحياة بأحيائها وجوامدها. رسمتها يد الله القادرة فى لوحة الحياة وصورتها تصويراً جماليا مبدعاً بكل وسائل التصوير الفنى باللون والخط والإيقاع والحركة.

وعنصر الحركة _ هنا هو أبرز مقومات التصوير التشكيلى فى هذا المشهد، الحركة بأنواعها المختلفة ومستوياتها المتعددة.

فها هى حركة الخلق كله حركة البدء والنهاية، حركة الحياة والموت حركة دائبة كونية مستمرة وخالدة، إخراج الميت من الحى وإخراج الحى من الميت، يفلق الحب تحت الأرض ليخرج منه النبات، ويفلق النواة الميتة فيخرج منه حبا وورقاً أخضر، ويخرج النبات الحى الأخضر من الحب اليابس ويخرج الحب اليابس من النبات الحى الغض، ثم حركة إخراج الحى من الميت والميت من الحى تتحقق على مستوى آخر عندما يراد بها إخراج المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن.

ثم حركة أخرى كونية فى شق الضياء عن الظلام ليخرج عمود الصبح عن ظلمة الليل وسواده. حيث يخرج الناس إلى رزقهم فى حركة وعمل دائب حتى إذا ما أقبل الليل يخفف إيقاع هذه الحركة وتهدأ الأنفاس اللاهثه (وجعلنا الليل سكنا) فتلك هى حركة الشمس والقمر والليل والنهار والكواكب والنجوم تسير فى مداراتها فى حركة معلومة وإيقاع محدد ونظام دقيق. وها هى حركة الخلق التى أنشأت البشرية كلها من نفس واحدة وهكذا الحركة أبدية ثم حركة أخرى فى إنزال المطر من السماء ونمو الزرع والزهر والثمر.وها هى حركة من نوع جديد أبطأ إيقاعاً ولكنها أكثر كثافة وحشداً. إنها حركة النمو. فهذه النباتات والمحاصيل والمزروعات _ على اختلاف أنواعها وأعمارها _ تنمو بإيقاعات مختلفة السرعة والمعدل، فتظهر على لوحة الأرض مختلفة الطول والقدر. وتظهر حركات النمو مختلفة المظاهر من امتداد للجذور إلى استطالة السيقان، واستدارة الأوراق، وتفتح البراعم، والزهور، وتكون الثمار.

ثم حركة أخرى لا تقل إيقاعاً وثراء وتنوعاً هى حركة التنوع الهائل فى أصناف المزروعات والمحاصيل والفواكه من الحب والنخيل والزيتون والرمان والأعناب.

هذا التنويع الهائل فى الشكل واللون والطعم لكل من هذه الأنواع (مشتبها وغير متشابه) سواء حباً متراكباً فى سنابل كالحنطة والشعير والذرة والأرز، أو فى ثمار صغيرة فى عناقيد وعراجين كالعنب والتمر، أو فى ثمرات كروية الشكل مثل الرمان وخلافه ... ومثل اختلاف اللون حيث تشهد هذه اللوحة مجموعة هائلة من الألوان والدرجات اللونية المختلفة ما بين داكن وناصع وهادىء وفاقع.

والى جانب كل هذه التنويعات من الحركة ومستوياتها وأنماطها فى هذا المشهد يضيف (محمد قطب) صورة أخرى من التنويع فى هذه اللوحة بما يسميه تنويع التعبير:

حيث يقول: «لكأنى المح فى تنويع نسق التعبير فى كل مرة أمراً مقصوداً لإيقاظ الحس حتى لا يستنيم لرتابة العرض وهو يستعرض آيات الله فى الكون. انه لا يقول هنا يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى، وانما يقول : يخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحى فيبده الحس بتغيير النسق قبل ان يسترسل مع رتابة التعبير :

ثم لا يقول : فالق الاصباح، وجاعل الليل سكنا.

إنما يقول : فالق الاصباح، وجعل الليل سكنا.

ثم لا يقول : متشابها وغير متشابه.

إنما يقول : مشتبها وغير متشابه.

ثم لا يقول : فأخرجنا منه خضراً فأخرجنا منه حباً.

إنما يقول : فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حباً.

هل ترى كل ذلك مصادفة، أم هو أمر مقصود للتنويع بكل وسائل التنويع وهو يستعرض أنواعا مختلفة من الحياة فى صفحة الكون ويريد أن يلفت الحس للقدرة القادرة التى تخلق كل هذه الأنواع وينسق فى اللوحة بين تعدد النماذج والأنماط فى المشهد وفى التعبير عنه سواء، إلا انه لون من الإعجاز فى التصوير والتعبير»[1]

(١) محمد قطب: **منهج الفن الإسلامى**، ص ٢١٦ .

٢ ـ مشهد آخر من المشاهد القرآنية لتصوير حركة الحياة على الأرض. أنها حركة من نوع آخر :

﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ الأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (٣٣) وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ (٣٤) لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلا يَشْكُرُونَ (٣٥) سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ (٣٦) وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ (٣٧) وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨) وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩) لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٤٠) وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (٤١) وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴾(١)

ينقسم هذا المشهد الالهى إلى لوحتين تصويريتين تعرضان نوعين مختلفين من الحركة، حيث التقابل بين الحركة الخفية المستترة والهادئة المتهادية فى بطء وتؤدة، فى اللوحة الأولى، وبين الحركة العنيفة القوية الدافعة بشدة فى اللوحة الثانية.

فى اللوحة الأولى هناك حركة انفلاق الحب والنوى، وخروج الميت من الحى والحى من الميت، وانفلاق الصبح وسكون الليل، وحركة الشمس والقمر والنجوم، وحركة الأنسال فى مستقرها ومستودعها، وحركة نمو النبات وإزهاره وإثماره ... كلها متنوعات للحركة اللطيفة الوئيدة البطيئة الهادئة ... مما يصبغ اللوحة كلها بإيقاع هادىء وديع.

أما فى اللوحة الثانية فتتنقل الحركة من إيقاعها المتهادى إلى مستوى من الحركة أكثر دنيا ميكية وأعظم حيوية واشد وقعاً. فها هى العيون تتفجر بالمياه منطلقة فى سرعة وتدفق، ثم خلق الأزواج كلها فى حسم وقطع، ثم حركة (سلخ) النهار من الليل بما يتمثله الخيال من وقع عملية السلخ بجهدها وشدتها ... ثم حركة الشمس وهى (تجرى) ثم (تستقر) بما تلقيه فى النفس من ظلال لإحساس الجرى ثم الاستقرار

(١) سورة يس : آية : ٣٣ ـ ٤٣ .

ثم حركة القمر فى منازله ينتقل من مرحلة لأخرى انتقالا واضحاً للعيان بما يصحبه من تغيير فى الشكل والضوء إلى أن يعود كالعرجون القديم ....

ثم هذه هى حركة السباق الدؤوبة بين الأجرام السماوية ولكنها فى النهاية حركة تحقق التوازن والتناسق فى نظام هذه الحركة. ومداها، لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار.

وآخر مستويات الحركة فى هذه اللوحة فى (وان نشأ نفرقهم فلا صريخ لهم ولا هم ينقذون) . «فهنا تتمثل حركة الإغراق العنيفة وما توحيه من تشبث عنيف من جانب المغرقين. ومع أن عملية الإغراق لا تتم فعلاً، فان حركتها تتم كاملة فى الخيال، ويسمع جلبة (الصريخ) بالفعل وان كان فى الصورة منفى الحدوث» (١)

هكذا نشاهد ونستمتع ونتدبر فى معرض الإبداع التصويرى الالهى، مشاهد الطبيعة الحية والصامتة .. المتحركة والجامدة .. الشاخصة والمتخيلة، صورتها يد الله القادرة المبدعة فى لوحات جمالية ولقطات إبداعية: لوحة الأرض والخصب والحب، لوحة النخل والشجر والزهر والثمر، لوحة السماء والنجوم، لوحة السحاب والمطر، لوحة الشمس والقمر، لوحة البحر والفلك ومستخرج الدرر، ثم أخيراً لوحة النفس البشرية بما بها من حياة وحركة _ ومشاعر وأحاسيس :ألما وأملا، حزنا وغصبا، فرحا وسرورا. لوحات جمالية صورها القرآن الكريم بكل وسائل الإبداع التصويرى : رسماً ولوناً وحركة وإيقاعاً.

وهكذا يفتح القرآن الكريم _ بإعجازه _ كتاب هذا الكون الجميل، ويقلب فى صفحاته العجيبة التكوين والتلوين، ويطلعنا عليها ويرينا إياها حتى نعرف الله معرفة حقيقيه بآثار صنعته وندركه بآثار قدرته، ونستشعر به عظمة إبداعه، فنعبده حقاً ونخشاه حقاً. وهذه النماذج من روائع التصوير وبدائع التكوين والتنسيق لا يدركها إلا كل إنسان يستشعر قلبه هذا الإبداع ويتحرك به فؤاده ويرى به يد الله المبدعة فى ذلك الكون الجميل.

---

(١) محمد قطب : نفس المرجع السابق، ص ٢٢٢ .

القرآن والتصوير الجمالى فى مشاهد القيامة

أن مشاهد القيامة فى القرآن من أكثرها وروداً فى ثناياه، بل هى من أروع مجالاته تصويراً. وبالرغم من أن مشاهد القيامة تنطوى على مضمون دينى بحت من حيث المغزى والموضوع، إلا أن هذا المضمون فى نفس الوقت يتضمن دلالات فكرية وخلقية وجمالية.

ومن أبرز سمات هذه الدلالات هى فكرة اتصال الحياة الدنيا بالآخرة اتصالا وثيقاً بحيث تكون الآخرة هى الامتداد للدنيا أو النهاية الحتمية لها دون حواجز أو فواصل. وان هذا التصور الكمالى والجمالى للحياة، يقوم على أن الآخرة والجزاء فيها ثوابا أو عقاباً ليست نهاية الرحلة فحسب بل هو التطور النهائى لها كذلك» (١)

ويتعدد ـ فى كثرة هائلة ـ فى القرآن الكريم ورود مشاهد يوم القيامة، والبعث، والحشر، والحساب ثم الجزاء بالثواب والعقاب، وبما يتضمنه من مشاهد أهل الجنة ونعيمهم، وأهل النار وعذابهم مما لا يتسع هذا الكتاب لحصرها وتناولها بالشرح والتفصيل. إلا أن الكاتب يكتفى باقتطاف بعض النماذج من التصوير القرآنى لهذه المشاهد.

مشاهد يوم القيامة والبعث والحشر:

١- ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾(٢)

تصور الآية (نفخة الفزع) وهى أولى مراحل القيامة، حيث يتلوها نفخة الصعق وهى الموت ثم نفخة النشور وهى البعث من القبور والقيام لرب العالمين. وفى هذا المشهد نستشعر حركة صاخبة على عدة مستويات وبإيقاعات متعددة. فلنا أن نتصور حركة النفخ وما يصدر عنها من أصوات وما تتطلبه من جهد وقوة. ثم حركة الفزع

---

(١) محمد قطب : المرجع السابق، ص ٢٥٣ .

(٢) سورة النمل : آية ٨٧ ، ٨٨ .

بما يصاحبها من ضوضاء وهرج ومرج وتحرك فى كل اتجاه، وصيحات هنا وهناك من كل الاحياء والكائنات.

ثم ها هو تصوير الحالات النفسية وما يرتسم على الوجوه من إمارات الهلع والفزع وما يمس القلوب من مشاعر الخوف والرعب. ثم حركة القيام والبعث من القبور حيث يهب كل من فيها يأتون إلى ربهم صاغرين مطيعين ... ويكمل هذا المشهد من مشهد آخر يبرز مستوى آخر من الحركة، وهى حركة الجبال الشاهقة وهى تسير سريعاً كالسحاب ... وهذه الحركة تتم بسرعة فائقة حتى يخيل للرائى إنها جامدة لا تتحرك من فرط سرعة سيرها وحركتها.

٢ - ﴿ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾(١)

فى هذا المشهد نوع خاص من السياق الموجز المركز، تتكثف فيه الأحداث فى شكل ومضات سريعة ومركزه تذكرنا بأحدث اتجاهات وتقنيات فن القصة القصيرة. إنه حشد من الصور المتتالية السريعة فى أحد مشاهد الحشر فى ذلك اليوم العظيم، يصور جموع المبعثين خارجة من الأجداث فى لحظة واحدة متدافعين متزاحمين وكأنهم أسراب محتشدة من الجراد تسير مندفعة لتلبية دعوة الداعى الذى دعاها فى هذه اللحظة الحاسمة. وهم خاشعو الأبصار منكسو الرؤوس، لا يدرون لماذا هم مدعوون فهم ينظرون إلى الداع فى ذلة وخضوع لا يتحول بصرهم عنه ويقولون فى أنفسهم خوفا من هذا اليوم هذا يوم جد صعب وجد شديد.

فهذا تصوير فريد لمشاعر الخوف والفزع والرهبة والاستسلام، تصوير حى يرتسم فى الخيال ويحرك الحس ويهز الوجدان.

٣- ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾(٢)

---

(١) سورة القمر: آية ٦ ـ ٨.

(٢) سورة الحج : آية ٢ .

﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ (٣٣) يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾(١)

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ (٥١) قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ (٥٢) إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾(٢)

إنها لوحة بانورامية مستعرضة تصور يوم القيامة فى ثلاثة مشاهد حية تموج بالحركة والديناميكية والصخب، وتفيض بالمشاعر الانفعالية والخلجات النفسية .

المشهد الأول: يزدحم بذلك الحشد الهائل من البشر الذاهلين من الهول العظيم.

فبكل القوة التى تهز النفوس وترج الأجساد تتمثل فى المشهد (زلزلة الساعة)، هذا الهول يذهل المرضعة ويضيع صوابها فتنشغل عن رضيعها من فرط أوجاعها وهمومها ومن شدة ذهولها بالموقف، إذ تنزع ثديها من فم طفلها الرضيع وهو أحب الناس إليها. حتى المرأة الحامل تسقط حملها فى غير أوانه فزعا ورعبا.

أما الناس فتراهم فى نظراتهم الذاهلة وخطواتهم المترنحة فتظنهم سكارى وما بهم من سكر، ولكن الهول الذى شاهدوه والخوف من عذاب الله الشديد. هو الذى افقدهم توازنهم وسلبهم عقولهم.

والمشهد الثانى: تأكيد مركز ودقيق مرة أخرى لما يصيب النفوس والقلوب لهول ذلك اليوم العظيم : إنه تصوير لانشغال القلب والفكر بالهم الحاضر القاهر فلا سواه شاغلهم، ولا انتباه لغيره منهم. فإذا صاخت الصاخة وجاءت صيحة القيامة التى تصخ الآذان حتى تكاد أن تصمها. فى ذلك اليوم يهرول الناس فى حركة واندفاع وفرار فى شتى الاتجاهات لا يفكر كل منهم إلا فى نفسه فقط وكيف يلوذ بها تاركا كل الناس حتى أحبابه واقرب الناس إليه : الأخ والأم والأب والابن والزوجة، فلكل إنسان منهم فى ذلك اليوم العصيب شأن يشغله عن غيره من الشئون مهما كانت هذه الشئون.

أما المشهد الثالث: فهو مشهد حاسم فى مراحل القيامة. فبعد الصيحة الأولى التى

(١) سورة عبس: آية ٣٣ ـ ٣٧ .
(٢) سورة يس: آية ٥٢ ، ٥٣ .

أخذت الناس وعجلت بهم إلى القبور، ها هى الصيحة الثانية حيث ينفخ فى الصور نفخة البعث والنشور ويخرج الناس من القبور سراعاً محتشدين متزاحمين وهم يرددون ويتساءلون ـ وقد أخذتهم الدهشة وروعهم الهول ـ ما الذى أخرجنا من قبورنا، بينما تجيبهم الملائكة بأن هذا ما وعدكم الله به حيث البعث بعد الموت والحساب والجزاء. إن هذا البعث ما هو إلا صيحة واحدة «يصيح فيها إسرافيل : أيتها العظام النخرة، والأوصال المتقطعة، والأجزاء المتفرقة، والشعور المتمزقة إن الله يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء ثم ينفخ فى الصور فإذا هم مجموعون فى موقف الحساب»[1] ذلك الحساب العادل الذى لا يظلم أحداً والذى يحصد فيه كل إنسان جزاء عمله إن كان خيراً فخير وإن كان شراً فشر. وليرسل إلى الجنة من يرسل وليقذف به إلى النار من يقذف.

مشاهد النعيم فى الجنة:

١ - ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾[2]

٢ - ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾[3]

لوحتان فنيتان تصوران مشهد الجنة فى صورة كلية عامة تجمل المشهد كله وتصور الجو العام فى لمسات عريضة وبمساحات واسعة وبألوان هادئة وإيقاع متئد. دون

(١) صفوة التفاسير: جـ٣، ص ١٩ .
(٢) سورة الزمر: آية ٧٣ -٧٥.
(٣) سورة الدخان: آية ٥١ ـ ٥٦ .

تفاصيل أو حركات عنيفة بحيث يصبح هذا الجو العام تمهيداً. كخلفية فنية تستعد لاستقبال ما يليها من تفاصيل وجزئيات دقيقة.

فها هم المتقون يساقون مكرمين إلى الجنة جماعات جماعات، وتفتح لهم أبوابها ليدخلوها آمنين مطمئنين مقدراً لهم فيها الخلود فقد أعد لهم الله من النعيم ما لا يخطر على بال.

وها هى الجنات التى ينعمون فيها، وعيون الماء تجرى من تحتها، إكراما لهم باغطام نعيمهم، يلبسون ما رق وما غلظ من الحرير متقابلين فى مجلسهم ليتم لهم الإنس، وقد زوجوا بحور عين، يطلبون كل فاكهة يشتهونها، وهم آمنون من الغصص والزوال والحرمان. لا يخافون الموت بعد الموتة الأولى التى ذاقوها فى الدنيا عند انقضاء آجالهم، ويحمدون الله الذى وقاهم عذاب الجحيم.

٣- ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لا تَسْمَعُ فِيهَا لاغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾[1]

فى هذه اللوحة تبدأ التفاصيل تظهر وأوصاف الجنة وأهلها تتجسد فى لمسات فنية تخاطب الحواس ويكملها التخييل والتمثيل والتجسيم. فتظهر الوجوه ناعمة ذات بهجة وحسن وإشراق، وتبدو الجنة بحدائقها وبساتينها عالية المكان والمكانة فيتهامسون فى هدوء لا تسمع ضجيجاً ولا شتما ولا سبا ولا فحشاً، تتدفق فى عيونها الكثيرة المياه الجارية فى سريان لطيف ينبىء بالرخاء ويعكس فى النفس الراحة والطمأنينة. وتفصيل آخر فى لمسات جمالية بديعة. لفرش الجنة وأثاثها : أسرة مرتفعة مزينة بالأحجار الكريمة والوسائد التى صفت متجاورة ليستندوا عليها، والطنافس الفاخرة ذات الخمل الرقيقة والمزودة بالزخارف والنقوش والألوان الزاهية، والاقداح والأكواب المعدة للشراب والمملوءة بما لذ من الشراب ولا تحتاج إلى من يملأها.

وكل هذه اللمسات التأثيرية الدقيقة والتفاصيل الوصفية المنمنمة التى ترسم لوحة الجنة وكأنما نحن أمام واحدة من فن المنمنمات الإسلامية التى اشتهر بها الفنان المسلم

---

(١) سورة الغاشية: آية ٨ ـ ١٦ .

... وبهذا يكون الانسجام التام بين كل مشاهد النسق القرآنى الذى مهد فى اللوحات السابقة لتصوير الجو العام للجنة ثم تجىء هذه اللمسات الشكلية واللونية والحركية الدقيقة التى ترتسم على خلفية المشهد لتؤكد وحدته الفنية وليجمع فى النهاية كل هذا التنوع فى الوحدة الكلية للموضوع المصور.

٤- ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾(١)

هذا ركن آخر من اللوحة التصويرية للجنة ونعيمها يتناول وصفاً تفصيليا وعرضاً لأنواع الأنهار المتعددة التى تجرى فى هذه الجنات :

انهار جاريات من ماء طيب الرائحة وكأنها تفجرت من جبل من مسك، وأنهار من لبن ناصع البياض غاية فى الحلاوة والدسامة، لم يفسد ولم يتغير طعمه كما تفسد ألبان الدنيا وكأنه حليب من نوع خاص لم يخرج من ضروع الماشية، وأنهار من خمر لذيذ الطعم غير خمر الدنيا الكرية الطعم لا يتلذذ به إلا فاسد المزاج، وأنهار من عسل غاية فى الصفاء وحسن اللون والطعم والريح لم يخرج من بطون النحل ولم يخالطه الشمع وفضلات النحل، كما أن فى الجنة أنواع متعددة من أصناف الفواكه والثمار جميلة الشكل ولذيذة الطعم.

٥- ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾(٢)

هنا نوع آخر من التفاصيل واللمسات الفنية فى أوصاف الجنة وأهلها. فهم يحلون ويتزينون بأساور الذهب والفضة واللؤلؤ. ويرتدون الثياب الحريرية الخضراء، ومتكئين على السرر والأرائك الذهبية المكللة بالدر والياقوت.

٦- ﴿وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ لا يَرَوْنَ

(١) سورة محمد : آية ١٥ .
(٢) سورة الكهف : آية ٣١ .

فيهَا شَمْسًا وَلا زَمْهَرِيرًا (١٣) وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً (١٤) وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَ (١٥) قَوَارِيرَ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا (١٦) وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلاً (١٧) عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلاً (١٨) وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا (١٩) وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا (٢٠) عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾[1]

هذا هو تصوير دقيق وتعبير بليغ وعرض كامل متكامل لحياة أهل الجنة وما هم فيه من نعيم : الجو اللطيف ليس بحار ولا بارد، والظلال الوارفة بقطوفها المذللة، وأكوابهم الفضية النقية المتلألئة التى يشربون فيها ما لذ طعمه من شراب، وما يطوف عليهم من غلمان حسان كأن وجوههم حبات لؤلؤ منثور، وما يرتدونه من ثياب حريرية خضراء وما يتحلون به من أساور فضية ..... الخ

إنها لمسات تفصيلية دقيقة يستكمل بها المشهد التصويرى البديع الذى تجتمع فيه فى وحدة جمالية واحدة كل عناصر التشكيل والتعبير الجمالى من أشكال وألوان وملامس وأضواء وحركات وإيقاعات.

وهكذا يبدو التناسق الفنى فى التصوير القرآنى أعلى من البلاغة الظاهرية وارفع من الفصاحة اللغوية، والصياغة اللفظية ... وهكذا ايضا يتحقق فى القرآن التواؤم التام بين الغرض الدينى والتصوير الفنى الجمالى فهما دائما وحدة واحدة لا تنفصل.

مشاهد العذاب فى النار

١ - ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾[2]

(١) سورة الإنسان : آية ١٢ ـ ٢١ .

(٢) سورة الزمر : آية ٧١ .

﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴾(١)

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ (٢) عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ (٣) تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴾(٢)

﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ (٧١) فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾(٣)

يصور هذا المشهد حالة الكفار والمنافقين أهل النار وهم يساقون إلى جهنم وكيفية حشرهم ودفعهم إليها. ثم يصور وصفاً لوجوههم وحالتهم النفسية. ويتكون هذا المشهد من أربع لوحات منها ما هو لقطات وصفية عامة تصور الجو والمناخ والحالة العامة، ومنها ما هو أضواء مركزة مسلطة على تفاصيل دقيقة من الجسم أو الحدث.

أما اللوحة الأولى فتمثل سوق أهل النار وطردهم إليها بالخزى والهوان، ودفعهم جماعات جماعات حيث تفتح لهم أبواب جهنم ويتقبلهم حراسها بالتقريع والتوبيخ، والتأنيب، ليمكثوا فيها ويقيمون بئس المقام والمأوى.

وتصف اللوحة الثانية آثار الخوف والرعب والهم التى تنعكس ظلالها على وجوه المجرمين أهل النار حيث يحشرون يومئذ زرق الوجوه من الكدر والغم. بل إنهم زرق العيون أيضا من شدة ما هم فيه من الأهوال.

ولقد تناول المفسرون كلمة (زرقا) فى الآية بالتفسير نقتطف منها :

ـ زرقا أى عمياً، لأنه حدقة من يذهب نور بصره ترزق، ويمكن أن يراد رزقة أجسامهم من ثقل ما هم فيه(٤)

ـ زرقا .. أى رزق العيون أو عمياً أو عطاشا، وسواد العين يتغير ويرزق من العطش ـ(٥)

ونضيف إلى هذه التفسيرات اللغوية والدينية المتخصصة ما نلاحظ فى حياتنا اليومية ما تصاب به شفتا الإنسان برزقه اللون عند ارتعاد جسمه من البرد الشديد أو من الفزع الشديد. حيث أن الشفتين هما أكثر أجزاء البشرة الظاهرة حساسية.

---

(١) سورة طه : آية ١٠٢ .
(٢) سورة الغاشية : آية ٢ ـ ٤ .
(٣) سورة غافر: آية ٧١ ، ٧٢ .
(٤) المنتخب فى تفسير القرآن الكريم.
(٥) صفوة التفاسير.

أما الآية الثالثة : فتؤكد حال الذل والانكسار التى تنعكس على وجوه المجرمين فى جهنم حيث تبدو ذليلة خاضعة مهينة، دائبة العمل فيما يتعبها ويشقيها فى النار جزاء تكبرهم فى الدنيا عن عبادة الله وانهماكهم فى لذاتهم وشهواتهم. فهم فى نار مسعرة شديدة الحر.

أما الآية الرابعة : آخر لوحات هذا المشهد فتصور ما يقوم به المعذبون فى الآخرة من أعمال شاقة ترهقهم وتنهك قواهم؛ فهم حين يدخلون النار تربط أياديهم إلى أعناقهم بالأغلال والسلاسل ويسحبون بها إلى الماء الحار المسخن بنار جهنم، ويسحبهم الزبانية على وجوههم تارة إلى الحميم وتارة إلى الجحيم، وها هم يتعبون ويشقون بسبب جر السلاسل والأغلال وخوضهم فى النار خوض الإبل فى الوحل والصعود والهبوط فى تلالها ودركاتها.

٢ ـ ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ (٤٣) طَعَامُ الأَثِيمِ (٤٤) كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ (٤٥) كَغَلْيِ الْحَمِيمِ (٤٦) خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٤٧) ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ (٤٨) ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (٤٩) إِنَّ هَذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ﴾(١)

﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ (٥) لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلاَّ مِن ضَرِيعٍ (٦) لا يُسْمِنُ وَلا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾(٢)

﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ (٣٥) وَلا طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ غِسْلِينٍ (٣٦) لا يَأْكُلُهُ إِلاَّ الْخَاطِئُونَ﴾(٣)

﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ (١٩) يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ (٢٠) وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ (٢١) كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾(٤)

---

(١) سورة الدخان آية: ٤٣ -٤٩.
(٢) سورة الغاشية آية: ٥ - ٧.
(٣) سورة الحاقة آية: ٣٥ - ٣٧.
(٤) سورة الحج آية: ١٩ - ٢٢.

ويصور هذا المشهد من مشاهد يوم القيامة طعام أهل النار وغذاءهم، ومأكلهم ومشربهم وطعوم هذه المآكل والمشارب فى حلوقهم ومذاقها فى أفواههم وما تفعله فى أمعائهم وأحشائهم من آلام وأوجاع.

ففى اللوحة الأولى إحدى أشجار جهنم وهى شجرة الزقوم الخبيثة السيئة الطعم هى طعام جهنم الوحيد لكل كافر فاجر مشرك آثم، فليس له طعام غيرها، وهى فى شناعتها وفظاعتها إذا أكل منها الإنسان فكأنما أكل نحاساً مصهوراً مغلياً تناهى حره، فيجرجر فى البطن كغليان الماء فى الآنية، ثم هذا هو الفاجر اللئيم يساق ويجر من تلابيبه بعنف إلى الجحيم، ثم يصب فوق رأسه عذاب الحميم.

وفى اللوحة الثانية تصوير آخر ووصف مختلف لمأكل ومشرب أهل النار، فهم يسقون من عين متناهية الحرارة شديدة الغليان، وليس لهم طعام إلا الضريع ذلك الطعام الخبيث السام بشع الشكل بأشواكه سىء الطعم بمرارته، فهو لا يفيد القوة والسمن فى البدن ولا يدفع الجوع عن آكله.

«وقد روى أنه يسلط عليهم الجوع بحيث يضطرهم إلى أكل الضريع فإذا أكلوه يسلط عليهم العطش فيضطرهم إلى شرب الحميم فيشوى وجوههم ويقطع أمعاءهم»(١)

أما اللوحة الثالثة فتعرض نوعاً جديداً من طعام أهل النار فان كلا منهم وحيد بمفرده ليس له صديق يدفع عنه العذاب حيث يتحاشاه الأصدقاء ويفرون منه، وليس له طعام إلا صديد أهل النار الذى يسيل من جراحهم، ذلك الطعام الخبيث البشع الكريه الذى لا يأكله إلا الخاطئون»(٢)

وفى الصور السابقة تنوع طعام أهل النار، فمرة هو الزقوم، ومرة يكون الضريع، وثالثة يكون الغسلين، ولا تنافى بينهم أو تعارض، لأن المعذبين أنواع، والعقاب ألوان، فهكذا يتنوع الجزاء بتنوع الذنب.

---

(١) صفوة التفاسير: ص ٥٥٢، عن تفسير أبى السعود.

(٢) الخاطئ هو الذى يتعمد الذنب، أما المخطئ فهو الذى يفعل الخطأ دون قصد أو عمد، ولهذا قال (الخاطئون) ولم يقل (المخطئون)، تعظيما لآثامهم وتهويلا فى خطاياهم.

ويختتم هذا المشهد الذى يصور أهل النار بهذه اللوحة التى يتعدى فيها وصف المأكل والمشرب إلى وصف ما يلبسه أهل النار من ثياب. فقد فصلت وخيطت لهم ثياب من نار على قدر أجسادهم ليلبسوها، فالنار هنا لباس لهم كالثياب. ويصب على رؤسهم الماء الحار المغلى بنار جهنم فيذاب به ما فى بطونهم من أمعاء وأحشاء مع جلودهم أيضا.

ولنا إن تنظر ونتأمل الصورة الحسية المتخيلة والمستترة خلف التصوير اللفظى، عندما نتخيل الحميم المصبوب على رءوسهم وتأثيره فى الباطن الداخلى للإنسان مثل تأثيره فى الظاهر الخارجى لجسده، حيث يذيب الأمعاء والأحشاء كما يذيب الجلود. وليتمثل الخيال صورة الحميم عندما يصب فوق رؤس الكافرين، فينفذ من الجمجمة حتى يصل إلى الجوف فيذيب ما فى الجوف ويصهره ثم يخرج هذا الحميم المصهور السائل من داخل الجسم إلى خارجه فينخر العظام ويأكل اللحم ويسلخ الجلود.

وهذه الصورة الحسية المجسمة والمتخيلة والمتمثلة هى واحدة من الصور العديدة التى تصور مشاهد العذاب والتنكيل والإذلال لأهل النار يوم القيامة، تصويراً جمالياً بلغة الفن عندما تكون الكلمة لغته والتصوير وسيلته.

وهنا قد يقول قائل، أو يسأل سائل : أى جمال فى هذا العذاب المؤلم. وفى هذه المناظر المقززة والطعوم الكريهة ؟

ورداً على هذا نقول أن الجمال بمعناه الدارج أو المألوف يختلف عن الجمال الفنى أو الاستاطيقى، ذلك الجمال الذى يقوم على جمال التعبير أكثر من جمال التأثير. ففى الجمال الفنى ـ كما يقول (كانط) يمكن تصوير أى شىء ولو كان قبيحاً فى الطبيعة حتى لو كان دمار الحرب أو ما يثير اشمئزازنا. ويذهب (جون دنيس) إلى أن هناك فى أوجه الفن ما يسمى بـ (الرعب البهيج)، ذلك الذى وصفه فى حديثه عن رحلته عبر جبال الألب فى نهاية القرن الماضى، فهو يقول عن الصخور والمنحدرات الهاوية أنها بعثت فيه رعباً بهيجاً وسرورا مخيفاً حتى أننى كنت أرتعد فى الوقت نفسه الذى كنت اشعر فيه بلذة لا حد لها» (١)

---

(١) أحمد رأفت على: **الرسم بالألوان فى القرآن**، مرجع سابق، ص ١٩٥ .

وهذا ما يسميه (دوفرين) استاطيقا القبح أو القبح الجميل وهو يبين بهذا، كيف يمكن تمييز الجمال الفنى (الاستاطيقى) عن الجميل بمعناه المألوف من خلال موضوعات تعتبرها غير جميلة كتلك الموضوعات القبيحة أو الشريرة أو التى تثير فى نفوسنا الألم أو الاشمئزاز.

«فالجمال الاستاطيقى أو الجمال الفنى ليس هو ما تعارفنا على تسميته أو وصفه بكلمة الجمال، وإنما هو نمط خاص متميز من الجمال قد يكون مضاداً لمفهوم الجمال بمعناه الدارج، وقد يكون مختلفاً عنه فحسب وقد يكون غير متعلق به بأية علاقة. وكما أن الموضوع القبيح يمكن أن يكون موضوعاً جمالياً، كذلك فان الموضوعات التى تثير حزننا وخوفنا وتسبب آلمنا ونفورنا فى عالمنا الواقعى _ تستثير إعجابنا حين نجدها مصورة من خلال لوحة فنية أو مسرحية أو قصيدة شعرية أو أى عمل فنى أدبى»(١)

وعلى هذا المفهوم للجمال الاستاطيقى تقوم أحدث الاتجاهات المعاصرة فى الفنون اليوم.

(١) سعيد توفيق: **مداخل إلى موضوع علم الجمال**، دار الثقافة ، القاهرة ، ١٩٩٢ ص ٩٧ .